المكتبات وعشاق الكتب
فى إسبانيا الإسلامية

● **حول إحراق الكتب العربية**
فى ميدان باب الرملة فى غرناطة :

بعد أن استولت الملكة **إيزابيل** والملك **فرناندو** على **غرناطة** [فى ٢ يناير من عام ١٤٩٢ م] ، أصدرا أمرهما إلى **الموريسكيين** بتقديم كل ما فى حوزتهم من كتب عربية إلى العدالة ، ليقوم الأخصائيون بفحصها ، حتى يسهل تحويلهم عن الإسلام إلى الكاثوليكية ، ثم أعيدت لهم الكتب المتصلة بالفسلفة ، والتاريخ ، وأحرقوا ما عداها .

ولكن الأمر لم ينفذ حرفيا ، وأبدى المسئولين الذين عهد اليهم بتنفيذه تسامحا مفرطا ، غير أن الكاردنيال ثيسنيروس ، وهو رجل حاسم فى قراراته ، رأى اتخاذ أسلوب أشد صلابة ، وأصدر أوامر فعالة كى يتم تنفيذ الأمر بكل صرامة وشدة .

ونتيجة لهذا الأمر جمع القائمون على تنفيذ أوامر الكاردينال عدة آلاف من المخطوطات العربية فى ميدان باب الرملة ، فى غرناطة ، وأشعلوا فيها النيران .

هذا الحادث وقع فى ميدان عام ، على مشهد ومرأى من الجماهير ، ورواه المؤرخون المعاصرون له ، وشهدوا أحداثه تقريبًا ، ومع ذلك شوهته الأهواء من جانب ، والتحريف من جانب ثان ، والتعصب المذهبى أخيرًا ، وأصبح تحديد ما جرى فيه بدقة شيئًا صعبا على المحايدين ، والمجردين من الغاية والهوى ، وهم يدرسون الآراء الأخرى المتعارضة ، والتى اتفقت على تحريفه لسبب أو لآخر .

فالمؤرخون المتعاطفون مع موقف الكاردينال العظيم يرون أن إحراق الكتب كان أمرا ضروريا لكى لا يخضر الإقبال على التعاليم الاسلامية ثانية بين الموريسكيين ، ولا يحسون بأدنى خجل عند المبالغة فى أرقام الكتب التى أسلمها الكاردينال إلى النيران ، لأنهم فيما يرون كلما زاد عدد الكتب التى أحرقها ، كلما ازداد العمل قيمة ، والكاردينال عظمة . وأولئك الذين تضطرب أعصابهم ، ويجتاح الغضب داخلهم ، لمجرد التفكير فى الثروة الأدبية والفكرية العظيمة التى التهمتها النيران هناك ، لا يشكون فى ضخامة عدد

المخطوطات ، ولا يتوقفون عن مضاعفة عددها ، حتى ولو كانت غايتهم مجرد تبرير الوقاحة التى واجهوا بها التعصب الدينى غير المتحضر . أما الذين أخذوا الأمر فى جد ، وفى حياد تام ، فكانوا قلة فى الحقيقة ، ويعتقدون أن مهمتهم ليست القيام بمعجزة تضخيم عدد « الخبز والسمك » ، وهو أمر ليست دونه أية عوائق ، ومن السهل العثور عليها فى بعض المواد التاريخية .

وأصبح أمرًا عاديا ، وخبز كل يوم عند كثيرين ، أن يعيدوا القول فى هذه القضية ، وأصبحت محورا لمناقشات مثيرة ، وتفجرت أحداها من قريب فى غرناطة ، وأثارت مشاعر الناس بقوة ، ذلك أن صحفيا متحرر الفكر جدًا ، ولو أنه لا يعرف العربية ، وبالتالى لم يفقد شخصيا شيئًا فى ذلك الحريق ، رسم بألوان قاتمة السواد تلك الجريمة المرعبة ، من التعصب الأحمق التى ارتكبها الكاردينال ثيسنيروس ، حين أطعم النيران ، دون أدنى شفقة ، فى ميدان عام ، مليونين من المخطوطات تضم معارف العرب العظيمة . وهذا الصحفى كما نرى مضى فى غرامه بالمسلمين إلى نهايته ، فاستخدم التضعيف ورفع الرقم من آلاف إلى ملايين ، وأسف على ضياع تلك الكتب والمعارف ، وهى بالنسبة له حروف صماء[1] .

ومن الجانب الآخر برز إلى الحلبة سيمونيت Simonet،[2] . وهو عالم كبير ، وتخصص فى دراسة العربية ، وحاول أن يضع كل شىء فى مكانه ، ولكن حماسته التقليدية والعنيفة فى الدفاع عن الكاردينال ثيسنيروس خرجت به عن الحد المعقول ، وبلغ به الأمر أن يؤكد ، بعد أن استبعد من الحريق ، افتراضا منا ، المخطوطات التى رآها تفيده فى

---

(١) أرجو من القارىء أن يأخذ فى الاعتبار أن الحديث عن التراث العربى والإسلامى الإسبانى لم يكن مما ترتاح إليه الكنيسة أو الطبقة الحاكمة فى تلك الأيام ، وأن الكاتب يتخذ من هذه المقدمة مبررا يقدمه بين يدى دراسته ، وإلا : هل من الضرورى لكى يدافع إسبانى عن تراث أمته فى اللغة العربية أن يعرف العربية ؟ هل الضرورى لكى يهتم بفلسفة سينكا وأدبه أن يعرف اللاتينية ؟ وهل من الضرورى لكى يخجل الإسبانى المتحضر والمثقف من هذا العمل المشين ، وأن يعبر عن خجله ، أن يفيد منه شخصيا ومباشرة ؟ فيم إذن أقسام اللغات العربية فى الجامعات الإسبانية ، أليس مهمتها أن تعكف على هذا التراث تدرسه ، وتترجمه ، وتقدمه لبقية المواطنين .
أعتقد أنه لا يعاب على هذا الصحفى تحمسه للأمر ، وإثارته القضية ، لمجرد أنه لم يكن يعرف العربية ، ولا يفيد من هذا المخطوطات شيئًا على نحو مباشر . « المترجم » .

(٢) أجاد سيمونيت اللغة العربية ، وله دراسات قيمة ، بذل فيها جهدًا كبيرًا ، ولكن التعصب الأعمى ، والحقد الأسود ، ذهب بكل جديتها ، وحسبك به إنسانا يتحدث عن الاستعمار العربى ، وإسبانيا بعد أقل من نصف قرن الفتح الإسلامى كانت دولة مستقلة ! « المترجم » .

دراسته : « من المستحيل تقريبا أن تكون إسبانيا الإسلامية قد عرفت هذا القدر من الخطوطات موضع النزاع ، لأن القول بأنهم يملكون هذه الملايين من المخطوطات يوجب علينا أن نفترض أن المسلمين أكثر شعوب العالم كله ثقافة واستنارة » . ويضيف : « ولكن الحقيقة غير هذا ، فلا الوثائق التى وصلتنا تبرهن على ذلك ، كلا ولا حضارتهم المتخلفة الخشنة ، وهى – كما هو عليه الحال فى بلد إسلامى – لا تتجاوز حدود الهمجية أبدا » .

وبلغ الأمر بهذا المستشرق العالم فى بحثه عن **الكاردينال خمينيث ثيسنيروس والمخطوطات العربية فى غرناطة** ، أن يبالغ على نحو يؤكد معه : « أن ثقافة أولئك المسلمين تنطوى على كثير من الخرافات والأساطير والتعصب » .

كل هذه الآراء التى اتسمت بالمبالغة حركت فضولى لدراسة غرام المسلمين الإسبان بالكتاب ، وهو – إلى جانب ذلك – نقطة إنطلاق هامة جدا فيما أرى لدراسة تاريخهم الأدبى ، ونتيجة للتحدى الذى واجهت نفسى به ، أعرض اليوم على حضرتكم سريعا ، الحقائق التى انتهيت إليها : هذا العدد الهائل من الكتب لم يكن فى إسبانيا الإسلامية سهلا وممكنا فحسب ، ولكنه واقع إيجابى : نعم كانت بين يدى المسلمين الإسبان مليونان من المخطوطات ، ولكنى مع هذا لا أستطيع القول ، اعتمادا عليها وحدها ، أنهم كانوا أعظم شعوب العالم ثقافة ، لأن امتلاك كتب كثيرة لا يتطلب بالضرورة درجة بالغة فى رقى التعليم . كم من العلماء كنا سنشهد لو أن الكتاب وحده كاف فى تكوين العالم !

أما أنه كان فى إسبانيا الإسلامية مليونان من المخطوطات فواقع يمكن البرهنة عليه ، وحتى فى جلاء ووضوح ، وفيما أرى فإن إسبانيا الإسلامية تجاوزت بمسافات بعيدة ما وراء حدود الهمجية .

● **أسباب انتشار الكتاب بين العرب :**

عندما بدأت عملى فى هذا النطاق كان مفاجأة مدهشة لى ، وجميلة أيضًا ، أن أجد معلومات أوفر بكثير جدًا مما أملت فى البدء ، حتى أن الشك ساورنى فى هذه المعلومات التى أوردها المؤرخون ، فقد صور هؤلاء هذه الحواية على أنها شائعة ومتأصلة ، وتولد الشك عندى فيما إذا كان هؤلاء الأندلسيون قد وقعوا ضحية المبالغة فى القول ، ولكن المعلومات وفيرة ، ومن عصور مختلفة ، وأوردها أناس أديانهم متغايرة . واتجاهاتهم متنافرة ، وليس لهم غايات معينة فيما يتصل بالموضوع ، وكانوا مجمعين ، فأخرسوا

شكى ، وقضوا على ترددى ، وأعترف مع ذلك أن اقتناعى بهم لم يكن حاسما إلى أن وجدت لهذه الوقائع تفسيرًا ، فبدا لى كل شىء طبيعيا ، ولأن التردد سيحدث لكم أيضًا ، اسمحوا لى أن أطلب منكم سلفًا ألا تظنونى مبالغا فى تصوير الأمر ، أو فيما أورد من معلومات .

لكن نفسر إحدى هذه المغامرات التاريخية الصعبة ، أقدم لكم ظاهرة نادرة فى الكتابة عند الأمة العربية ، لقد كان العرب فى البدء قبائل شتى ، صغيرة ومتفرقة ، تعيش على الرعى فى الجانب الأكبر منها ، دون أن تكون نواة لشعب يستأهل اسما محددا ، وليس لهم موطن ثابت . وإنما مهابطهم أرض الجزيرة العربية كلها ، قاحله وجرداء ، وحرمت من الماء أنهارا مهما كانت صغيرة ، وأمطارا مهما كانت ضحلة ، وتحكمهم عادات بدائية تقريبا ، لا تكاد تعكس شيئًا من تأثير الحضارات التى قامت وازدهرت حول بلادهم ، ومع ذلك ، كان لهم أبجديتهم ، وكتابة تميل إلى الاستدارة ، مما لا يوجد إلا عند الشعوب ذات الحضارات العريقة ، حيث أدت مطالب التجارة ، وضرورات الاتصال ، إلى اختراع الكتابة ، أو استعارتها ، وشيوعها . ولحسن الحظ فإن هذا الواقع حقيقة ثابتة ، ليس ثمة وسيلة للشك فيها أو نكرانها ، وتتمثل كتابتهم فى سطور تجىء متوالية ، دون أن تدرك ما فيها من التواءات ، ولا تجد لها شبيها فى الكتابات الأخرى ، رومانية أو إغريقية أو عبرية ، فقط يمكن أن نوازن بها كتابة الآلة الكاتبة الحديثة ، وهى كتابة مقطعية ، ونصف الحروف لا يكتب[1] ، ويعتمد الكاتب فيه على فطنة القارىء ، وأنها تعرف دائما إدراك الخلل وسده . واسم من أربعة مقاطع أو خمسة مثلا ، يرسم فى سرعة فائقة ، وباختصار شديد ، ويأخذ من الزمن ما ننفقه نحن فى رسم حرف صامت واحد من حروفنا ، فاسم محمد مثلا لا تكلف كتابته كلها كثيرًا فى العربية ، إلا بمقدار ما يكلفنا رسم الحرف الأول منه فحسب ، إذا كتبناه فى حروفنا اللاتينية Mohammed، وإذا وضعنا هذه الكتابة المستديرة فى خط مستقيم ، فإن الكلمة العربية تشغل بالكاد هذا المسافة : ـــــ ، على حين أن الكلمة نفسها تشغل فى أبجديتنا هذه المسافة : ـــــــــ .

ليس من الغريب إذن أن نجد الناسخ العربى يكتب أكثر من قرينه فى اللغة اللاتينية ، وبالتالى فهو ، مع تساوى الأجر اللائنين ، يعطى من الإنتاج أربعة أمثال ما يعطيه الكاتب

---

(١) يشير إلى الشكل ، وهو يمثل فى اللغة اللاتينية جزءا من بنية الكلمة ، لاتكتب بدونه ، ولاتفهم أيضًا . « المترجم » .

فى لغتنا ، أى أن اليد العامة فى ضوء هذه الظروف أرخص أربع مرات فى مجال النسخ ، عند العرب ، مما عليه عندنا .

ومن جهة أخرى فإن الشعوب فى القديم ، وفى أوربا على امتداد كل العصر الوسيط تقريبًا ، كانت تستخدم **ورق البردى المصرى** فى الكتابة ، أو الرق ، وهى مواد كانت غالية الثمن فى الأسواق دائما ، إما لندرتها ، أو لتكاليف إعدادها . أما العرب فقد استخدموا الورق منذ زمن مبكر جدا ، وضاعفت المصانع من إنتاجه ، حتى أنه أزاح البردى القديم عن الاستعمال ، وقلل إلى حد كبير من استخدام الرق ، ولهذا السبب ، ولأنهم وحدهم الذين أفادوا على نطاق واسع من الاختراع ، أمكنهم أن يقللوا من تكاليف الكتب ، وأن يجعلوها أرخص ثمنا . ويمكن أن نتخذ من التطور الذى جاءت به آلات الطباعة الحديثة ، وتضخم إنتاج الكتب إلى حد كبير ، والتجارة فى الكتب والمكتبات ، نموذجًا لتكوين فكرة عن التأثير الذى يمكن أن يكون قد أحدثه استخدام الورق ، وسرعة الكتابة عند المسلمين . يقول **ابن خلدون** :

« . . . وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم ، وكتب الرسائل السلطانية والصكوك ، فى الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة الرفه ، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك ، فاقتصروا على الكتاب فى الرق تشريفا للمكتوبات ، وميلا بها إلى الصحة والإتقان ، ثم طما بحر التدوين والتأليف ، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه ، وضاق الرق عن ذلك ، فأشار **الفضل بن يحيى** بصناعة الكاغد وصنعه ، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الإجادة فى صناعته ما شاءت »[1] .

وفضلا عن ذلك ، فإن طريقة الحياة الخاصة بالشعوب الإسلامية جعلت الكتابة الوسيلة الوحيدة للتربية ، وهو ظرف ليس جوهريا كالأسباب التى سبقت ، ولكنه كاف وحده إذا لم يكن ثمة سبب آخر ، فقد كان المسلمون يختلفون عن غيرهم ، مثلا : كان لدى الإغريق مجالسهم السياسية ، ويستطيع الشعب عن طريقها أن يحيط علما بكل ما يجرى فى قضاياه العامة ، ومسارح تمثل عليها الحياة الإنسانية فى كل جوانبها ، ومجامع علمية تدرس العلوم ، وتناقش كل قضاياها علنا ، وتقف من العالم كله موقف الأستاذ

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢١ ، طبعة المكتبة التجارية .

تعلمه ماذا يجب عليه أن يحب أكثر ، ولم يكن المسلمون يستمتعون بشيء من هذا ، ومن ثم لم يتطور بينهم فن الخطابة السياسية ، لأن الفرصة لم تتح لهم لاستخدامها ، ولا الخطابة القضائية ، لأنه لم تكن هناك محاكم ولا محلفين ، ولا الخطابة المجمعية ، لأن الحوار العقلى الذى يعتمد على العقل كان قليلا ، ولا ينظر إليه بعين الرضا . وكل ما هنالك أن الخطابة الدينية بالكاد استطاعت أن تنمو قليلا ، وجاء تكوينها رديئًا ومتقلبا نتيجة الوحدة الحزينة التى ولدت فيها وشبت ، وانحصرت حياة الشعب الأدبية كلها فى قص الحكايات الخيالية والأسطورية فى الأسواق وسماعها وقراءة الكتب فى المساجد ، ونتيجة لها كانت **ألف ليلة وليلة** الجنس الأدبى المحبب لهم ، واللامع بينهم . ومن هنا أصبح العرب أكثر الشعوب القديمة حبا للكتب ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتربية عندهم ، فضلا عن رخصها .

ولم ينتشر حب الكتب بهذه الطريقة فى كل البلاد التى انتشر فيها الإسلام ، ولم تظهر جميعها التوتر نفسه ، وإنما بدأ ذلك واضحا بين الشعوب التى ازدهرت فيها الحضارات القديمة ، ولهذا كان الفرس والمصريون والإسبان دائما الأكثر ثقافة بين المسلمين ، وبينهم ظهر أعظم عشاق الكتب ، ولست أعرف أى هذه الشعوب يأتى فى المقدمة ، ولكن لدينا من الأسباب ما يجعلنا لا نتنازل عن المكانة الأولى ، على الأقل ، حين تصبح موطن منافسة ، ففى إسبانيا نما حب الكتاب وازدهر ، وبلغ الغاية ، ويثير إعجابا حقيقيا .

● **إدخال الكتب المشرقية إسبانيا :**

فى أيام الفتح الأول انحصر عدد المسلمين فى شبه الجزيرة الإسبانية فى الجاليات العسكرية التى كانت تحتل المدن والقلاع القوية ، لكى يخضعوا الأرض التى احتلوها ، وتميزت الكتب والتعليم بغيابهما ، وكل ما هنالك أن المسيحيين احتفظوا بتقاليدهم اللاتينية فى نفس لغة أسلافهم ، ولكن عندما ارتفع عدد الذين اعتنقوا الإسلام ، وتطلبت حاجة الدولة رجالا تعمقوا فى دراسة الشريعة الإسلامية ، بدأنا نلحظ طلائع استيراد الكتب والمعرفة من المشرق ، ولو أنها كانت قليلة ومحدودة ، وانحصرت فى العلوم الفقهية والدينية . ويثير أصحاب كتب التراجم إلى كثيرين من هؤلاء الذين أدخلوا الكتب المشرقية إلى إسبانيا ، وإلى كثير من كتب الأدب المشرقية الشهيرة ، ويذكرون أى العلماء جاء بها إلى إسبانيا .

لقد رحل **جودى بن عثمان** مولى بنى أمية ، ومن أهل مورور ، وأصله من طليطلة ، إلى المشرق ، ولقى الكسائى والفراء ، وكان **أول من أدخل كتاب الكسائى إلى الأندلس** وكانت له حلقة ، وأدب أولاد الخلفاء ، وظهر على من تقدمه[1] . وأدخل **عيسى بن دينار** كتب الفقه المالكى[2] ، وكانت الفتيا تدور عليه فى وقته لايتقدمه أحد . وأدخل محمد بن عبد السلام القرطبى الأندلسى كثيرًا من حديث الأئمة ، وكثيرًا من **كتب اللغة رواية** عن الأصمعى ، وكثيرًا من **الشعر الجاهلى** ، وكان فصيح اللسان ، جزل المنطق ، ضربًا من الأعراب ، صارما أنوفا ، منقبضًا عن السلطان ، وأراد الأمير محمد أن يوليه منصب قاضى الجماعة فأبى[3] .

ورحل **قاسم بن ثابت** السرقسطى مع أبيه فسمع بمصر وبمكة ، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه ، فأدخلا إلى الأندلس علما كثيرًا ، ويقال أنهما أول من أدخل كتاب « العين » إلى الأندلس ، « وكان قاسم عالما بالحديث واللغة ، متقدما فى معرفة الحديث والنحو والشعر ، وكان مع ذلك ورعا ناسكا ، وأريد على القضاء بسرقسطة فأبى »[4] ورحل عثمان **بن المثنى** من أهل قرطبة ، إلى المشرق فلقى جماعة من رواة الغريب ، وأصحاب النحو والمعانى ، وقرأ **على حبيب بن أوس** المعروف بأبى تمام ، ديوان شعره ، وأدخله إلى الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الأمير عبد الرحمن الثانى ، وعمر إلى أن بلغ تسعا وتسعين سنة[5] ، وأدخل **محمد بن عبد الله بن الغازى بن قيس** ، من أهل قرطبة ، الأندلس علما كثيرًا من **الشعر** ، **والغريب** ، **والخبر** ، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية[6] . وأحضر **أحمد بن محمد بن هارون البغدادى كتب بن قتيبة** ، **وبعض كتب الجاحظ** رواية ، وانصرف إلى المشرق بعدما تردد فى الأندلس أعوامًا ، واستوزر بعد ذلك هناك[7] .

---

(١) التكملة لابن الآبار ، الترجمة ٦٥٩ ، طبعة مصر .
(٢) ابن القرضى ، الترجمة ٧٧٦ طبعة الدار المصرية .
(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١١٣٤ .
(٤) نفح الطيب ، جـ٢ ص ٤٩ ، طبعة إحسان عباس .
(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ٨٩١ ، طبعة الدار المصرية .
(٦) المصدر السابق ، الترجمة ١١٥٢ .
(٧) المصدر نفسه ، الترجمة ٢٠١ .

وبعضهم أدخل كتبا استقبلت بعدم الحفاوة ، **فابن هلال** ، عبد الله بن محمد بن قاسم ، دخل العراق ، ولقى **داود الظاهرى** ، **وكتب عنه كتبه كلها** ، **وأدخلها الأندلس** فأخلت به عند أهل وقته » ، « وكان علم داود الأغلب عليه ، ونظر فى علم مالك نظرًا حسنا غير أنه كان يميل إلى علم داود والحجة »[1] ورحل **أيوب بن سليمان** ، **وهو من نسل إليان القوطى** ، **إلى المشرق** ، **ودخل العراق** ، **وأدخل الأندلس كثيرًا من كتب العراقيين** ، وكان مائلا فى مذهبه إلى الحجة ، لهجًا بالنظر لا يرى التقليد ، وله وجاهة بعلمه ، وشرف أوليته ، المأثور بدخول الاسلام أرض الأندلس على يد جده إليان ، ولكن الناس أعرضوا عن كتبه ، لأنها موضع الشك منهم ، فلم يحدث بها أحد غير ابنه[2] . والجدل والنقاش الذى ثار حول **مسند بن أبى شيبة** ، الذى أدخله **بقى بن مخلد** معروف[3] ، ولم يكن إدخال الكتب وقفا على العلماء من الخاصة فحسب ، وإنما جاء بها بعض أفراد الأسرة المالكة القرطبية أيضًا ، فقد رحل حبيب بن الوليد ، وينحدر من الأسرة الأموية المالكة ، ويلقب **بدحون** ، ولقى أهل الحديث فى المشرق ، وكتب عنهم ، وقدم الأندلس بعلم كثير[4] . وكان **ابن الأحمر** ، محمد بن معاوية ، وينتسب فى الأسرة الأموية كسابقه ، أول من أدخل الأندلس **مصنف النسائى فى السنن** ، وحدث به ، وانتشر عنه[5] .

وجاء بالكتب أيضًا التجار والرحالة الذين لا يستهدفون فى رحلاتهم طلب العلم ، اشتروها فى المشرق ، وجاءوا بها إلى إسبانيا تجارة وطلبا للربح ، أو ليهدوها إلى الرجال المتعلمين مثل ما فعل **أبو بكر الدينورى** ، أحمد بن الفضل[6] **وابن يبقى الجذامى التاجر** ، أحمد بن خالد ، وأدخل الأندلس كتبا غريبة تفرد بروايتها فسمعها

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٦٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، الترجمة ٢٦٨ .

(٣) انظر ص ٣٢ من هذا الكتاب .

(٤) التكملة لابن الآبار ، الترجمة ٧٣٨ ، طبعة مصر .

(٥) الضبى ، البغية ، الترجمة ٢٧١ ، طبعة مدريد .

(٦) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٠٣ ، طبعة مصر .

الناس منه قديما وحديثًا ، ولم يكن له فهم ، ولا يقيم الهجاء إذا كتب ، غير أنه كان رجلا صدوقًا[1] . وكان محمد بن عبيد الله بن أيوب يتعاطى عمل الديباج ، فلذلك عرف **بالدباج** ، وله رحلة إلى بغداد ، وكانت كتبه بخط الوراقين ، وهو ثقة[2] .

وبعضهم بدل أن يجمع الكتب ليبيعها كان يحرص عليها كواحد من عشاقها المولهين ، فقد كان **عبد الملك بن حبيب** « جماعا للعلم ، كثير الكتب ، طويل اللسان ، فقيها ، نحويا ، عروضيا ، شاعرا ، نسابة ، إخباريا . وأكثر من يختلف إليه الملوك وابنائهم »[3] . « وكان **هاشم بن خالد** حسن العناية بالكتب ، جامعا لها ، ضابطًا لما روى منها »[4] . **ورحل موهب بن عبد القادر الباجي** إلى المشرق ، وجمع وقر جمل من الكتب ، ومن بينها تاريخ أبى البشر الدلابى فى المولد والوفاة ، وكتاب العين ، وتوفى منصرفه من مصر بموضع يقال خربة الطوب ، ووصل كثير من كتبه باجة مع قوم من أهلها كانوا معه[5] .

وآخرون كانوا يوقفون كتبهم على المساجد لصالح الطلاب ، أو فى بيوتهم الخاصة ، أو بيوت من يثقون فيه ، وقد أوقف **هارون بن سهل القرطبى** كتبه ، وأودعها عند أحمد بن خالد[6] .

وعندما بدأ الإسبان يعتنقون الدين الإسلامى غمرتهم حماسة المبتدىء ، فاندفعوا بعزم قوى إلى دراسة اللغة الجديدة ، والعقيدة الجديدة ، وأخذت الموجة تتزايد مع الزمن ، وتشتد وتتضح ، وأصبحت الرغبة فى القراءة عامة وقوية . وهذا التقدم نحو الأمام ، وكان فى البدء بطيئًا ومترددًا ، ثم اشتد وقوى فيما بعد ، عانى من الأضطراب والتذبذب ، وكانت الإمبراطورية الأموية تعانى منه ، إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر العظيم ، وكانت

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١١٩٩ .

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ٣ ، ص ٥٤٨ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

(٤) ابن الفرضى ، الترجمة ١٥٣٦ . طبعة الدار المصرية .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٨٥ .

(٦) لمعرفة الذين حملوا الكتب المشرقية إلى إسبانيا تفصيلا ، فى فرع من فروع المعرفة ، يمكن الرجوع إلى فهرسة ابن خير ، فى كل فصل من الفصول التى أوقفها على هذه العلوم ، فى طبعة مدريد أو القاهرة ، وهذه الأخيرة تصوير للأولى .

لديه الشجاعة ، وواتاه الحظ ، فقضى على كل الثائرين ، أو حاصرهم ، وأرسى قواعد الدولة على أسس متينة وراسخة .

● مكتبات قرطبة :

وآتى السلام والنظام ثماره الطبيعية ، وشغلت التجارة والصناعة مكان السلاح ، وقويت سلطة الدولة ، وتجلى الازدهار الاقتصادى فى الثروات الخاصة ، وفى الوقت نفسه بدأت الأموال تتدفق على بيت المال ، وفى ظل إدارة ماهرة ، على نحو لم يعرفه قبلها يوما .

وقد أحست قرطبة قبل غيرها ، بوصفها عاصمة ، بهذه النتائج ، فامتدت دائرة عمرانها ، وتعددت الأرباض حولها واتسعت ، وأصبح سكانها يكونون جزءا منها ، وشاع بناء القصور ، واتخاذ الحدائق ، وامتلاك المنيات للراحة ، أو البيوت الريفية بتعبير آخر ، تزين شواطئ الوادى الكبير ، إلى جانب الأسواق النافقة ، والمقابر المنسقة ، والمساجد العامرة ، وكلها ضاقت بما أدى إليه العمران والازدحام ، وأضيئت الشوارع ، وانتشرت النوافير ، وعرفت ما يتطلبه كل هذا من انتشار رجال الشرطة فى المراكز الكبرى فى المدينة .

وأصبح ممكنا بفضل ثراء بيت المال إنشاء القنوات والجسور ، ورصف الطرق ، وأتاح لعاهل قرطبة ترف تشييد مدينة الزهراء الرائعة ، فى سطح جبل تلك المدينة الملكية ، وعمل فيها آلاف العمال دون انقطاع ، جيء بهم من مناطق عديدة ، من جليقية ، وبيزنطة ، والمشرق ، لبناء هذه القصور الجميلة ، لخلفاء بنى أمية فى إسبانيا ، واحتلت مكانا مرموقا من التاريخ[1] .

وجذب إليها ضجيج الشهرة أكثر العلماء علما ، وأشد الطلاب ذكاء وحرصا ، جاءوا من المقاطعات المختلفة ، ومن خارج إسبانيا ، وجاء معهم أمهر النساخين ، وأذكى الوراقين ، وأغنى التجار ، وتعاون الجميع على أن يجعلوا من قرطبة سيدة التجارة والصناعة ، إلى جانب أنها العقل المفكر لمقاطعات الغرب فى نفس الوقت ، وتلقت صناعة الكتاب ، وهواية الكتب ، وبدأت تزداد مع اتساع التعليم انتشارا ، دفعة جديدة قوية بإقامة مصانع الورق فى طليطلة وشاطبة .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مدينة الزهراء انظر : فون شاك ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، ص ٤٢ ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٠ . (المترجم) .

ولكى لا نفقد وعينا أمام تنوع المكتبات وعشاق الكتب ، وكثرة عددهم فى قرطبة ، فى تلك الأيام ، سوف نقنع بزيارة عاجلة لأهمها ، وتأتى المكتبة الملكية فى المقام الأول ، لأهمية صاحبها ، وقيمتها ، وأهميتها ، وأعداد الكتب التى كانت بها .

● **مكتبة بنى أمية :**

أظهرت الأسرة الأموية الملكية فى إسبانيا حبها للتعليم منذ **عبد** الرحمن الداخل أول أمير لها (٧٥٥ – ٧٨٨م) ، وكان عبد الرحمن نفسه أميرا وشاعرا ، ونعرف بين أحفاده الذين ارتقوا عرش الإمارة من بعده من اهتموا حتى بالفلسفة ، وكانت شيئا غير محبب إلى رعاياه . وفى عهد الأمير **محمد الأول** (٨٥٢ – ٨٨٦م) بدأ المؤخون يشيرون إلى المكتبة الملكية كواحدة من خير مكتبات قرطبة ، واشتهر **عبد** الرحمن الناصر العظيم نفسه بحب الكتب ، وبلغت شهرته الخافقين ، ووصلت حتى **بيزنطة** ، وحين أراد إمبراطورها قسطنطين السابع أن يستميل الخليفة الأندلسى لحاجة فى نفسه ، فكر أن يهدى **عبد** الرحمن الناصر أحب شىء إلى قلبه ، كتابا جديدا لم يعرفه من قبل ، فأرسل إليه كتاب ديوسقوريديس فى الطب « مصور الحشائش بالتصوير الرومى العجيب ، وكان الكتاب مكتوبا بالإغريقى الذى هو اليونانى » ، فى مجلد رائع ، وكتب بحروف مذهبة ، وزين بالرسوم الجميلة للأشجار التى ورد ذكرها فى الكتاب . ولم يكن العاهل الأندلسى يعرف الإغريقية ، ولم يجد شخصا متخصصا فى هذه اللغة يقوم بترجمته له ، فطلب من الإمبراطور البيزنطى أن يرسل له عالما من عنده ، عارفا بلغته وبالعربية ، ليقوم بترجمة الكتاب ، فأرسل له من القسطنطينية الراهب **نيقولا** ، الذى وضع نفسه فى خدمة الخليفة بمجرد أن وصل قرطبة .

ومع ذلك يجب أن نضيف أن أبا عبدالله الصقلى ، وآخرين من كبار الأطباء المسلمين واليهود فى قرطبة، كان يتحدث اللغة الإغريقية، ويعرف من خلال دراساته العميقة كل الأسماء التى وردت فى كتاب ديو سقوريدس، باستثناء عدد منها لا يزيد على عشرة ونيف[1] .

---

(١) ليكليرك : تاريخ الطب العربى ، جـ١ ص٤١٩ .

● يبدو أن مهمة نيقولا كانت تحديد أنواع النبات فحسب ، فقد كان فى قرطبة من يعرف اليونانية غير أبى عبد الله الصقلى ، مثل : محمد النباتى ، والبسياسى ، وأبى عثمان الخزار ، الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد ، وعبد الرحمن بن اسحاق بن الهيثم ، وحسداى بن شبروط ، وكلهم من الأطباء . والحق أن الكتاب كان قد ترجم مرتين فى المشرق ، الأولى صنعها اصطفن بن باسيل ، على أيام الخليفة المتوكل العباسى ، والثانية قام بها حسان التاتلى أستاذ ابن سينا سنة ٣٧٤هـ – ٩٨٥م ، ولكن إسبانيا الإسلامية فيما يبدو لم تكن عرفت أيا منهما . (المترجم) .

وفى ذلك الوقت بدأ اثنان من أبناء **عبد الرحمن الناصر** ، وهما : **الحكم ومحمد** ، دراستهما تحت إشراف مؤدبين من إسبانيا أو الشرق ، واستيقظت هوايتهما للكتب فى قوة ، حتى أن مكتبة والدهما لم تعد تشبع نهمهما ، وتنافس كلاهما : أيهما يستطيع أن يسبق الآخر فى تكوين مكتبة أدق اختيارا وأكثر عددا . وبعد فترة توفى **الأمير محمد** ، وورث أخوه الحكم مكتبته ، وبوفاة **عبد** الرحمن الناصر والدهما أخذ الحكم مكتبته ، وجمع الثلاث فى واحدة ، وأصبحت هذه مكتبة القصر ، وكان أسلافه من قبله قد أحاطوها بكل رعايتهم .

وكان يعمل فى مكتبة القصر ، دون توقف ، أمهر المجلدين فى إسبانيا ، إلى جانب آخرين جئ بهم من صقلية وبغداد ، ومعهم جمهرة من الفنانين : رسامين ، ومزوقين ، ومنمقين ، ويزخرفون الكتب بالصور الجميلة ، بعد أن نسخها أدق الخطاطين ، لتقديمها إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارضتها وتصحيحها ، وتدفع لهم الدولة مرتباتهم فى سخاء .

وبين هؤلاء العلماء من أصحاب الثقافة الواسعة ، الذين كانوا يعملون فى خدمة الحكم الثانى لمراجعة الكتب ومعارضتها وتصحيحها : الرباجى ، محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى النحوى ، وهو أصلا من جيان ، واستقر فى قرطبة ، وكان فقيها ، إماما موثوقا ، جيد النظر ، دقيق الاستنباط ، حاذقا بالقياس ، نظر الناس عنده فى الإعراب ، وأدب عند الملوك ، واستأدبه الناصر رضى الله عند لابنه المغيرة ، وأوسع له الحكم فى الجراية[1] .

وكان من بينهم أيضا الأديب اللغوى **محمد بن أبى الحسين الفهرى** القرطبى ، وهو ناسخ ووراق ، « وتقدم فى حفظ الأدب والعلم باللغات » ، وتولى مع **محمد بن معمر الجيانى** تهذيب ما لم يهذبه **أبو على القالى** من كتابه **البارع فى اللغة** ، وابتدأ فى تأليفه سنة تسع وثلاثين[2] وثلاث مئة هجرية ، إلى أن توفى لسبع خلون من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وثلاث مئة ، وصحح منه كتاب الهمزة وكتاب العين[3] فقط ، وتوليا هما الباقى ، فاستخرجا الصكوك والرقاع ، وقاما على

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ١٢٩٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) فى التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١٠١٤ سنة خمسين ، وأراه وهم منه . « المترجم » .

(٣) كلمة كتاب تعنى هنا «فصل» فى التأليف الحديث. «المترجم».

« تهذيبه من أصوله التى بخطه ، وخطهما مما كتبا بين يديه » فلما كمل الكتاب ، « خرج بخط فصيح فى مائة وأربعة وستين جزءا ، عدد أوراقها أربعة آلاف وأربع مائة وست وأربعون ورقة » ، وارتفع إلى **الحكم المستنصر** ، فأراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمعة عليها من كتاب **العين للخليل** بن أحمد ، فجاءت نيفا وأربع مئة ورقة ، تتضمن خمسة آلاف وست مئة وثلاث وثمانين كلمة ، « مما وقع فى العين مهملا فأملاه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد فيه »[1] .

واشتهر كناسخ ووراق ، وتميز بين من يعملون فى خدمة العاهل الأموى : **عباس بن عمرو بن هارون الصقلى** ، قدم الأندلس ، واتصل بالحكم ولما يزل وليا للعهد ، فتوسع له فى الرزق ، **وصار من جملة الوراقين** ، وكان وسيما حليما ، حسن الحكاية ، بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب ، عالما بالكلام ، حافظا للأخبار ، وكان هذا الفن أكثر علمه[2] . وكان **ظفر البغدادى**، وسكن قرطبة، **من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط**»، واستخدمه الحكم المستنصر فى الوراقة[3]وكان معه فى هذه المهمة **يوسف البلوطى** .

ومن الخطاطين الذين عملوا فى خدمة الحكم الثانى اشتهرت **لبنى** ، وكانت تعمل كاتبة له ، حاذقة بالكتابة ، نحوية شاعرة ، بصيرة بالحساب ، مشاركة فى العلم ، لم يكن فى قصرهم أنبل منها . وكانت عروضية ، خطاطة جدا[4] . **وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله** ، الكاتب المعروف **بالشبلارى** ، مولى بنى أمية ، وكانت كاتبة جزلة ، عمرت كثيرا ، واستكملت أربعا وتسعين سنة ، **تكتب على ذلك الكتب الطوال ، وتجيد الخط** ، وتحسن القول[5] .

وكان **تليد الخصى** ، وهو من أكبر موظفى البلاد ، يعمل خازنا على المكتبة ، ومشرفا عليها ، وندين بجل معلوماتنا عنها له ، ومهمته أن يمدها بكل جديد ، ويتابع

---

(١) أحالنا المؤلف فى هذه الفقرة على : التكملة لابن الأبار ، الترجمة ١١٠١٤ ، طبعة مصر ، والبغية للضبى الترجمة ٩٤ ، ووجدت أنا معلومات لا بأس بها فى فهرسة ابن خير ، ص٣٥٤ ، فأضفتها إلى ما سبق . « المترجم » .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ٨٨٦ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٩٣٦ ، طبعة القاهرة . [ونفح الطيب ، جـ٣ ص١١١ ، طبعة احسان عباس] .

(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ١٥٢٩ ، طبعة الدار المصرية .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٦ . والتكملة ، الترجمة ٢٣٤ ، طبعة مدريد .

فهارسها ، والحفاظ على كتبها ، وبلغت فيها ، طبقا لروايته نفسه ، أربع مئة ألف مجلد ، أى أكثر من مكتبتنا الجامعية اثنى عشر مثلا ، وكان الفهرس ، ولا يضم غير عنوان الكتاب واسم المؤلف ، من أربع وأربعين فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر اسماء الدواوين فقط . ولا نرى فى الأمر أية مبالغة ، خصوصا إذا أخذنا فى الحسبان أن هذه المكتبة تضم ثلاث مكتبات كبيرة ، « ولم يسمع فى الإسلام خليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها ، أفاء على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه ، ومنهم : أبو اسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر[1] ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى وغيرهما ، جرى ذكر هذا فى كتبهم وتواريخهم » .

« وبعث إلى **أبى الفرج الاصفهانى** القرشى المروانى ألف دينار عينا ذهبا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى **الأغانى** ، وما لأحد مثله ، ووصل بذلك المال رحمه ، إذ كان قسيمه فى المروانية ، ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم » .

« وألف له أيضا أنساب قومه بنى أمية موشحة بمناقبهم وأسماء رجالهم ، فأحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجدا ، وأرسل به إلى قرطبة ، وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره — وكان محسنا — يمدحه بها ، ويذكر مجد قومه بنى أمية وفخرهم على سائر قريش ، فجدد له عليه الصلة الجزيلة » .

« وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف . ورجال يوجههم إلى الآفاق باحثين عنها ، ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها ، والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتابا كان له فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه ، إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد

---

(١) ابن شعبان من كبار المالكية فى مصر فى أواخر العصر الإخشيدى ، وأصله أندلسى من قرطبة ، وقد أرسل إليه عبد الرحمن الناصر عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية ، فأخرج الأخشيد مثلها ليفرقها فى شيوخ الشافعية ، وكان يرجو الله أن يميته قبل دخول الفاطميين مصر ، فمات قبل ذلك بثلاث سنوات .

إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به ، مأمونا عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به »[1] .

وشاع بين رعايا الحكم الثانى أن أقصر الطرق إلى قلبه ، وأفضل وسيلة لإقناعه « واستمالته للحصول على خير ، أو بلوغ منصب ، أن تقدم له كتابا ليس عنده فى مكتبته ، ولهذا أخذ العلماء يخصونه بمؤلفاتهم ، أو يهدون إليه نسخا من كتب نادرة ، ونجد ذلك حتى بين الأساقفة المسيحيين فى قرطبة ، فقد ألف الأسقف **ربيع بن زيد** ، واسمه في اللاتينية رثموندو Recemundo ،كتاب الأنواء ، واشتهر باسم تقويم قرطبة ، وأهداه إلى الحكم الثاني ، وهى كتاب طريف ومثير ، ولحسن الحظ وصلنا كاملا ، واشتهر بيننا ، ونشر أخيرا[2] .

من بين هؤلاء الذين أخذوا طريقهم إلى قلب الحكم عن طريق الكتاب : **ابن مفرج القرطبى** ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى ، وكان سكناه بقرطبة بقرب عين فنت أورية Fonteàurea ، رحل إلى المشرق عام ٣٧٣هـ ، وطاف بكثير من مدنه ، ولقى كثيرا من علمائه ، وبلغت عدة شيوخه إلى مئتين وثلاثين شيخا ، وعاد إلى الأندلس من رحلته عام ٣٤٥هـ ، واتصل بالحكم المستنصر ، وصارت له عنده مكانة ، وألف له عدة كتب ، واستقضاه على مدينة إستجة ، ثم على المرية ، وهو محدث ، حافظ جليل ، صنف كتبا فى فقه الحديث ، وفى فقه التابعين ، بصير برجال الحديث ، صحيح النقل ، جيد الكتابة على كثرة ما جمع ، من أغنى الناس

---

(١) ترد هذه المعلومات متناثرة فى عدد من كتب الأدب والتاريخ الأندلسى ، ولكن نص ابن الابار ، فى الحلة السيراء ، جـ١ ص٢٠٢ – ٢٠٣ ، طبعة القاهرة ، أكملها وأوضحها وأغناها تفصيلا ، وأحالنا المؤلف عليه ، فجئت بالنص كاملا . « المترجم » .

(٢) عثر جيبرمو ليبرى على نسخة من الترجمة اللاتينية لتقويم الأسقف ربيع بن زيد ، فنشرها ذيلا على كتابه المسمى : تاريخ العلوم الرياضية فى إيطاليا ، ونشره فى باريس عام ١٨٣٨ . وعثر دوزى على تقويم عريب بن سعد ، ووضعه عام ٣٤٩هـ – ٩٦١م فى مخطوطة عربية اللغة ، ولكنها مكتوبة بحروف عبرية ، واستطاع أن يقرأها ، وأن يستخرج منها النص العربى ، وسماه تقويم قرطبة لسنة ٩٦١م ، وقارن بين هذا النص ، وتقويم ربيع بن زيد ، وانتهى إلى أن تقويم ربيع ليس إلا ترجمة لاتينية لتقويم عريب ، مع بعض الزيادات .
وأيد هذه النتيجة عدد من علماء الاستشراق . انظر :

Simonet: Historia de los mozarabes de España, I, p. 612 ss. Madrid, 1903

Guillermo Libri: Histoir des Sciences mathématiques en Italie, Paris, 1838. Vol. I, p. 393 ss.

(المترجم)

بالعلم ، وأصحهم كتبا ، وأشدهم تتبعا لروايته ، وأجودهم ضبطا لكتبه ، وأكثرهم تصحيحا لها لا يدع فيها شبهة[1] .

ومنهم محمد بن حارث **الخشني** ، من أهل القيروان ، وسكن قرطبة ، وألف للحكم كتبا كثيرة ، قيل أنها بلغت مئة ديوان ، وجمع له فى رجال الأندلس كتابا ، نقل عنه **ابن الفرضى** فى كتابه **تاريخ علماء الأندلس** ، ومنها مؤلفه القيم عن « **تاريخ قضاة قرطبة** » ، وقد نشرناه وترجمناه إلى اللغة الأسبانية[2] .

وكان **مطرف** بن عيسى الغسانى ، من غرناطة ، من أهل العلم والرواية للحديث ، طلب بالأندلس ، ثم رحل وحج واقتبس وجلب علما كثيرا ، وألف للخليفة الحكم الثانى كتابا سماه : « **المعارف فى أخبار كورة إلبيرة وأهلها وبوائرها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها** » ، وهو كتاب حسن ممتع جدا[3] .

وأهداه **ابن فرج الجيانى** ، وهو وافر الأدب ، كثير الشعر ، معدود فى العلماء ، كتابه **الحدائق** ، [وعارض فيه كتاب **الزهرة لابن داود الأصفهانى** ، إلا أن ابن داود ذكر مئة باب ، فى كل باب مئة بيت ، وأورد ابن فرج مئتى باب ، فى كل باب مئتى بيت ، ليس منها باب تكرر اسمه عند ابن داود ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا ، فقال عنه **ابن حزم** : « أحسن الاختيار ما شاء ، وأجاد فبلغ الغاية ، فأتى الكتاب فردا فى معناه »] [4] .

وألف **محمد بن يوسف الوراق** كتابا ضخما فى مسالك أفريقية وممالكها ، وفى أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة ، وألف أيضا فى أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة[5] ، وغيرها تواليف حسانا ، وأهداها للحكم ،

---

(١) نفح الطيب ، جـ٢ ص٢١٨ ، طبعة إحسان عباس .

● فى الأصل قنت أورية ، وهو خطأ ، لأن الاسم ترجمة للفظ الإسبانى المذكور فى النص أعلاه . « المترجم » .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ١٤٠٠ .

● صدرت طبعة رييرا فى مدريد عام ١٩١٤ . وأصدرت دار أجيلار طبعة ثانية منه فى الستينيات . وأصدرت الدار المصرية للتأليف والترجمة طبعة منه عام ١٩٦٦ . « المترجم »

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ا ـ ـة ١٣٦٧ .

(٤) الضبى ، البغية ، الترجمة ٣٣١ .

(٥) يعنى بصرة المغرب ، وكانت قرية من مدينة أصيلا . « المترجم » .

ومحمد هذا أندلسى الأصل والفرع ، آباؤه من وادى الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان[1] .

وعندما أراد **الحكم الثانى** القيام بإحدى غزواته فى شمال الأندلس عام ٣٥٢ هجرية عرض على **ابن الصفار** ، عبد الله بن محمد ، وكان مشهورا بالعلم والأدب أن يكون فى صحبته ، فاعتذر بضعف فى جسمه ، فقال الحكم لحاجبه **أحمد بن نصر** : قل له : إن ضمن أن يؤلف لى فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب **الصولى** فى أشعار خلفاء بنى العباس أعفيته من الغزاة ، فخرج إليه أحمد بن نصر بذلك ، فقال : أفعل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله ، فخيره الحكم بين أن يقوم بالتأليف فى منزله ، أو أن يكون فى دار الخلافه المطلة على النهر ، فاختار **ابن الصفار** هذه وقال : أنا رجل مورود فى منزلى ، وانفرادى فى دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل ، فأجيب إلى ذلك ، وكمل الكتاب فى مجلد صالح ، وخرج الحاجب بالمجلد إلى الحكم قبل أن يعود إلى العاصمة فلقيه فى طليطلة ، وقدمه إليه ، فسر به سرورا عظيما[2] .

ولم يكن حب الحكم الثانى للكتب مظهريا ، يجمعها ويكومها فى خزانته ترفا ومباهاة ، وإنما كان يقرأها ويعلق عليها ، وهى تعليقات كانت موضع التقدير من العلماء ، والاستفادة منها فيما بعد ، فقد أشاع فيهم الثقة التى يستحقها عالم حجة ، وأتاحت له الظروف أن يبلغ حدا من المعرفة الواسعة ، والثقافة العريضة ، من المحال أن يبلغها أولئك الذين لا تتوافر لهم الوسائل التى توفرت له .

وكان المكان الذى تشغله المكتبة فى البدء ضيقا وفيه ترقد الكتب أكواما بعضها فوق بعض ، ولم تعد تتسع لكثير مما يرد إليها يوميا ، فأصبح ضروريا نقلها إلى مكان آخر مناسب لها ، وعمل فى هذا النقل عدد كبير من الأشخاص بهمة وحماسة ، واستمرت مهمتهم ستة أشهر كاملة .

وتقدم الكتب غير الشائعة لندرتها أو حجمها ، والمخطوطات القديمة المحترمة ، مادة طيبة يعمل فيها الخطاطون ومشهورو النساخين ، والفرصة ليست مواتية لذكرهم وتعدادهم ، وحسبنا أن نذكر أن عشاق الكتب المتأخرين الذين عرضوا لمكتبة الحكم

---

(١) نفح الطيب ، جـ ٣ ص ١٦٣ ، طبعة احسان عباس .

(٢) الضبى ، البغية ، الترجمة ٣٣١ .

الثانى يقولون عنها : إنها كانت تحفة لم يسبق لملك على وجه البسيطة أن ملكها ، أو زها بمثلها ، قبله أو من بعد[1] .

وتكوين هذه المكتبة لم يكن عملا فردا ومنعزلا ، إذ الحق أن الأسرة الملكية لم تصنع أكثر من السير على النهج الذى اختطه لنفسه الشعب القرطبى ، فلنحاول أن نزر – ولم لا ؟ – إحدى هذه المكتبات الشهيرة ، التى كانت عند الرعايا المسلمين ، ولتكن :

● **مكتبة ابن فطيس :**

صاحب هذه المكتبة ينتسب فى إحدى الأسر القرطبية الواسعة الثراء ، وكان يملك حيا بأكمله ، يقوم حول البيت الذى يسكن فيه ، ولكنه أمر بتشييد بناء خاص بالمكتبة ، رسمه المهندسون بفن ، وتستطيع من زاوية معينة أن تشاهد كل الرفوف ، والقاعة الأنيقة ، والسطح ، والجدران ، والشرفات ، والسجاد ، والوسائد الغالية ، وكلها خضراء اللون ، وهو يرمز إلى شرف الأسرة وعراقتها . وفيها نرى ستة من النساخ يعملون بهمة ، ولا يقبضون أجورهم مقاومة بالقطعة ، وإنما يتلقون رواتب ثابتة حتى لا تدفع بهم العجلة إلى الخطأ ، أو الإهمال ، أو عدم الدقة فى الكتابة ، وكان الخازن عليها من أذكى علماء المدينة فهما ، ويتولى ، طبقا لوظيفته ، فهرسة الكتب ، ونسخ ما يحتاج منها إلى مزيد من الدقة والعناية . وهذا الخازن هو : **أبو عبد الله بن معلى الحضرمى** ، وهو أصلا من باسة ، ولكنه استقر فى قرطبة ، وكان يسكن فى درب بنى فطيس ، ويتولى الخطابة فى مسجد الأسرة نفسها ، وموضع التقدير منهم .

[وكان **ابن فطيس** ، عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ، نفسه « من جهابذة المحدثين ، وكبار العلماء والمسندين ، حافظا للحديث وعلله ، منسوبا إلى فهمه وإتقانه ، عارفا بأسماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين منهم والمجروحين ، وله مشاركة فى سائر العلوم ، وتقدم فى معرفة الآثار والسير والأخبار ، وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة ، والحكايات المسندة ، جامعا لها ، مجتهدا فى سماعها وروايتها ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، جمع من الكتب فى أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره ، مع سعة

(١) ذكر كتاب التراجم بعضا من هؤلاء النساخين والخطاطين .
أنظر مثلا : التكملة ، الترجمة ٣٢٨ ، والضبى ، الترجمة ٥٤١ ، وابن الفرضى ، الترجمة ١٦٣٤ ، ٤٤٦ ، وابن بشكوال ، الترجمة ٧٩٦ ، وغيرهم فى الطبعات الإسبانية .

الرواية والحفظ والدراية ، وكان يملى الحديث من حفظه فى مسجده ومستملٍ بين يديه ، على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق ، والناس يكتبون عنه »] .

[وتقلد قضاء الجماعة بقرطبة ، مقرونا بولاية صلاة الجمعة والخطبة ، مضافا ذلك كله إلى خطته العليا فى الوزارة ، فاستقل بالعمل ، وتولى الخطابة ، ولم يقصر فى شىء من عمله ، وكان مشهورا فى أحكامه بالصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وقمع الظالم ، وإعزاز الحكومة ، وكان من أبناء الدنيا ، فلما ولى القضاء غير زيه ، ترك زى الوزراء ، وعاد إلى أخصر زى الفقهاء] .

« وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه ، وبالغ فى ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه ورده عليه » . و « لا يعير كتابا من أصوله البتة ، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه ، وقابله ، ودفعه إلى المستعير ، فإن صرفه وإلا تركه عنده » . ولأن إنفاق الأموال لا يؤلمه ، ولا تنقصه ، وهوايته للكتب تأخذ كل يوم أهمية أكبر ، تجمعت لديه أعظم مكتبة فى قرطبة بعد مكتبة الخليفة .

[وكان من بين ما تضم مكتبته ، مما أورده لنا المؤرخون : « كتاب القصص والأسباب التى من أجلها نزل القرآن فى نحو مائة جزء ونيف ، وكتاب المصابيح فى فضائل الصحابة مائة جزء ، وفضائل التابعين لهم بإحسان مائة جزء وخمسون جزءا ، والناسخ والمنسوخ ثلاثون جزءا ، وكتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالقين أربعون جزءا ، وأعلام النبوة ودلالات الرسالة عشرة أسفار ، وكرامات الصالحين ومعجزاتهم ثلاثون جزءا ، ومسند حديث محمد بن فطيس خمسون جزءا ، ومسند قاسم بن أصبغ العوالى ستون جزءا، والكلام على الإجازة والمناولة فى عدة أجزاء ، وغير ذلك من تواليفه] .

وفيما بعد ، بسنوات ليست طويلة ، أمكن تقدير قيمة الكتب التى تحتوى عليها المكتبة ، عندما اضطرت ظروف الحياة التعسة أحفاده إلى تصفيتها ، فقد ظل السماسرة والدلالون يترددون على مسجد الأسرة فى حيهم مدة عام كامل ، ليشهدوا بيعها فى

المزاد العلنى ، وعلى الرغم من أنها بيعت فى تلك الأيام المشؤومة من الحرب الأهلية ، فقد اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية ذهبا[1] .

● **مكتبات أخرى فى قرطبة :**

ويذكرون أيضا من عشاق الكتب الممتازين **قاسم بن سعدان** ، وهو من رية ، وسكن قرطبة ، « وكان ضابطا لكتبه ، متقنا لروايته ، حسن الخط ، جيد الضبط ، عالما بالحديث ، بصيرا بالنحو والغريب والشعر ، ولا أعلم أحدا بالأندلس عنى عنايته ، **ولم يزل فى نسخ ومقابلة إلى أن مات** ، ولم يحدث **وحبس كتبه** فكانت **موقوفة عند محمد** بن محمد بن أبى دليم ، وكثر من سماعنا عليه فيها »[2] . وكان **الجهنى الطليطلى** ، عبد الله بن محمد ، « رفيع القدر ، عالى الذكر ، عالما بالأدب واللغة ومعانى الشعر ، ذاكرا للأخبار والحكايات ، حسن الإيراد لها وقورا ، ما رأيت أضبط لكتبه وروايته منه ، ولا أشد تحفظا بها ورعاية لها ، وكان لا يعير كتابا إلا لمن تيقن أمانته ودينه حفظا للرواية »[3] .

وشهدت تلك الفترة بعض عشاق الكتب اضطرتهم ضرورات الحياة إلى التنازل عن مكتباتهم ، والاعتناء بحياتهم ، وحدث هذا **ليحيى بن مالك بن عائذ الطرطوشى** ، وتردد بالمشرق نحوا من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحدثين ، وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقدم الأندلس فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات طلاب العلم ، وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يقول عن نفسه : **لو عدت** أيام مشيى فى المشرق ، وعدت كتبى التى كتبت هناك يخطى ، لكانت كتبى أكثر من أيامى بها »[4] .

● **فى مكتبة قرطبى فقير :**

ولم تكن الأسر الغنية وحدها تستمتع بترف تكوين مكتبات غنية ، وإنما تجد هذه الحواية حتى بين طبقات المجتمع الأشد تواضعا ، وهى ترضى حبها للكتب بقدر ما تسمح

---

(١) أورد ابن بشكوال أخبار عبد الرحمن بن فطيس ، أبو المطرف ، هذا تفصيلا فى كتابه الصلة . أنظر : الترجمة ٦٨٣ ، طبعة الدار المصرية .

● والزيادة أيضا من كتاب الصلة ، وفيما يتصل بمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية ، أو فتنة البربر ، التى دفعت بالأسرة إلى بيع هذه المكتبة ، يمكن العودة إلى كتابى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل الخاص بالفتنة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ . « المترجم » .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة ١٠٧٢ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٥٥٨ ، طبعة الدار المصرية .

(٤) ابن الفرضى ، الترجمة ١٥٩٩ ، طبعة الدار المصرية .

لها إمكاناتها ، وكمثل على ذلك سوف نزور معلما فقيرا ، يمضى حياته بين الصبيان ، ويعيش من تعليمهم ، وهو حزم المعلم[1] ، ويساعده فى مهنته ابنه محمد ويقوم على تعليم الصبيان ، وبنته وتقوم على تعليم الفتيات ، والقليل الذى يدخره من دخله ينفقه فى شراء الكتب ، ويشغل ساعات فراغه فى نسخ الكتب التى يعيرها له أصدقاؤه ، ورغم أن ظروفه لا تتيح له ترف أن يستخدم لها خازنا لكن ذلك لا يعنى أنها كانت مهملة ، أو غير مرتبة ، أو يجهل قيمتها . وكان أدباء قرطبة يحسدونه أحيانا على دقة مخطوطاته ، وروعة بعضها وندرة البعض الآخر ، وأحضرها فى رحلة له إلى المشرق استهدف بها هذه الغاية ، ويمكن أن تراه فى ملابس جد متواضعة ، ويتناول طعاما أشد تواضعا ، ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أى حد يمكن أن يبلغ حب الكتب الجيد بصاحبه ، حتى عند أصحاب الدخول المحدودة ، والأرزاق المتواضعة .

[وقد أورث هذه الهواية ابنه محمدا ، فأصبح راوية للأدب والطرف، واهتم بتدوين كل أمر، وتأريخ كل خبر، ولم يكن قبله أجمع للدواوين منه، ولا أصبر على الكتاب، ولا أدوم على النظر]، وكانت نهاية هذا العاشق الفقير للكتب مأساوية، فقد ذهب فى رحلة إلى الحج، وأدركته الوفاة فى سيره وقد ركب البحر، وكالعادة ألقى بجثته فى البحر[2].

● **المرأة المسلمة والكتاب :**

ولم يكن عشاق الكتب من الرجال وحدهم ، فقد أخذت المرأة المسلمة بحظها من هذه الهواية أيضا ، رغم أنه يطيب لكثيرين أن يصوروها جالسة كسلى فوق الأرائك المريحة ، والحشايا الوثيرة ، تتنفس أريج العود الذى ينطلق مع دخان المجامر ، سجينة ردهات الحريم الداخلية ، تحلم دائما بالمتع الحسية ، ومثل هذه المرأة ليست إسبانية ، ولا يمكن أيضا أن تنصرف إليها تلك النعوت القاسية التى وصف بها المرأة عاشق الكتب الانجليزى الشهير ، وزير إنجلترا فى القرن الثالث عشر الميلادى : ريكاردو دى برى

---

(١) لا صلة له بأسرة ابن حزم الشهيرة فى أحداث قرطبها وتاريخها ، والتى منها العالم الجليل أبو محمد على بن أحمد بن حزم . « المترجم » .

(٢) التكملة ، الترجمة ٧٤٩ ، ٩٦٤ ، طبعة الدار المصرية .

● أضفنا ما بين الخاصرتين لأن الأمر التبس على الكاتب ، فجعل الأب هو الذى توفى فى رحلة الحج ، والواقع أنه الابن . « المترجم » .

Recardo de Beri فى رسالته « عشاق الكتب hilobiblion » ، والتى يهاجم فيها نساء عصره ، ورجال الدين على أيامه ، يقول :

« والآن أزيحت الكتب من بيوت رجال الدين بالقوة والسلاح ، حيث كان يستمتعون باللجوء إليها فى أيام مضت ، وبحق الإرث على الأقل فيما سبق ، وكان يسمح لهم بغرفة داخلية هادئة ، تجمعت فيها الكتب ، ولكنهم الآن – ياللزمن المشؤوم ! – يقذفون بالكتب خارج الأبواب ، وتحل مكانها أحيانا الكلاب وطيور الصيد ، وأحيانا أخرى ذلك الحيوان ذو الساقين ، الذى يسمى المرأة ، والذى يجب ألا يعيش معه رجال الدين . ولا يكاد هذا الحيوان المؤذى للدراسات يكتشف الكتب المخبأة التى يغطيها نسيج العنكبوت القديم ، حتى ينهال عليها سبا بكلام أشد مرارة من السم ، ويرينها جديرة فقط بأن تستبدل بالأقمشة الحريرية ، والملابس القرمزية ، أو بأى طعام لذيذ تافه » .

إن الحيوان الإسبانى المسلم ذا الساقين لا يتصف بالملامح التى لحظها ركادو دى برى فى السيدات الإنجليزيات على أيامه ، لا فى عليا طبقات المجتمع القرطبى ولا فى دنياه . فالمرأة الإسبانية المسلمة تعمل فى مكاتب الحكم الثانى الملكية ، وتعرف الكتابة ، وتجيد الخط ، ودرست النحو والشعر ، وإلى جانب اللائى أشرنا إليهن من قبلُ نجد : **لبنى** الكاتبة الممتازة ، **وفاطمة** العجوز ، وظلت تكتب حتى بعد أن تقدمت بها السن جدا ، فى أناقة ودقة ، وأمضت حياة شريفة ، وتوفيت عذراء ، فى سن متقدمة ، طبقا لما رواه معاصروها .

ويمكن أن نذكر بين سيدات الطبقة العليا فى قرطبة ممن اشتهرن بحب الكتب **عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم** ، وهى من أسرة عريقة وملحوظة ، ولم يكن فى الأندلس « فى زمانها من يعدلها فهما وعلما وأدبا ، وشعرا وفصاحة ، وعفة وجزالة وحصافة . وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها ، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها ، ولا ترد شفاعتها . وكانت حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتعنى بالعلم ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة ، وماتت عذراء لم تتزوج »[1] .

(١) ابن بشكوال الصلة ، الترجمة ١٥٣١ ، طبعة الدار المصرية .

وفضلا عن عائشة هذه يجب أن نذكر **راضية** مولاة عبد الرحمن الناصر ، وأعتقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى ، وكان يعمل موظفا فى قصر الخلافة ، وانتهى المطاف بكتبها إلى أبى محمد بن خزرج ، وعمرت طويلا ، فعاشت مئة عام ونيف[1] ، **وخديجة** بنت جعفر بن نصير ، وزوج عبد الله بن أسد الفقيه ، وحبست مكتبتها على ابنتها[2] .

ولا نجد بين الطبقات الدنيا عاشقات للكتب ، ولكن هذا لا يعنى أنهن كن عدوات للكتاب ، فقد كان مئات منهن يعملن فى نسخ القرآن الكريم ، وكتب الصلوات والأدعية ، وكانت أكثر شيوعا ، لبيعها للوراقين ، وهؤلاء يقبلون عليها أكثر ، لأنهم مع كتابة المرأة يحصلون على نسخ أوضح نظافة ، وأشد اعتناء ، وأبلغ مهارة ، وأحسن خطا ، وأرخص ثمنا ، لقلة أجورهن عن النساخ من الرجال . وأورد عبد الواحد **المراكشى** فى تاريخه **المعجب فى تلخيص أخبار المغرب** ، نقلا عن **ابن فياض** فى تاريخه فى أخبار قرطبة : « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع جهاتها ؟ »[3] .

● **المصاحف :**

المصحف أكثر الكتب نسخا ورواجا فى العالم الإسلامى ، فهو يستخدم نصا يقرؤه التلاميذ فى المدارس ، ويشغل المسلمون الطيبون وقتهم بالتلاوة فيه ، ويقرأ ويرتل فى المساجد ، وغير ذلك . وتضبط مخطوطاته ، عادة بالشكل الكامل ، وتنسخ فى عناية ودقة ، ويكتب فى أجمل الخطوط فنا ومهارة ، ويجلد فى أحسن الأغلفة وأغلاها . وكان هناك دائما خطاطون تخصصوا فى نسخ القرآن الكريم فحسب ، بعضهم لما يدره عليهم نسخه من ربح ، وآخرون رجاء فى ثواب الله ، واشتهر عدد من بين هؤلاء النساخين .

كان **ابن أبى الفوارس** ، محمد بن إسماعيل ، **من أكتب الناس للمصاحف** على أيام الحكم الثانى ، **يكتب المصحف فى أسبوعين أو نحوهما**[4] وتخصص **ابن الحجام** ، خلف بن سليمان ، من أهل قرطبة ، **فى كتابة المصاحف ونقطها** ، لأنه عرف بالدقة

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٣٢ .

(٣) المعجب ، ص ٣٧٢ ، الطبعة الأولى ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٠١٦ ، طبعة مصر .

فى هذا العام[1] ، وكتبت **عائشة** بنت أحمد عددا من **المصاحف بخط جميل**[2] ، وكان **إبراهيم** بن مبشر بن شريف البكرى ، يقرىء فى دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة ، **وينقط المصاحف** ، ويعلم المبتدئين[3] ، واشتهر **نصر المصحفى** ، من أهل طليطلة ، بلقب « النقاط » ، لأنه كلن يقرىء القرآن ، **وينقط المصاحف**[4] ، وتخصص **محمد بن وضاح** ، من أهل شذونة ، **فى كتابة المصاحف**[5] ، ويقال أن **ابن مفاضل الملقى** ، وهو شخصية فاضلة جدا ، **نسخ سبعين مصحفا كاملة**[6] ، وبين نساخ القرآن الكريم من يرفض أن يخط بقلمه غير المصحف[7] .

وعرف الأندلس عددا من مخطوطات المصاحف الشهيرة ، يقول ابن خليل السكونى فى فهرسته : شاهدت بجامع العدبس بإشبيلية ربعة مصحف فى أسفار ، ينحى به لنحو خطوط الكوفة ، إلا أنه أحسن خطا ، وأبينه وأبرعه وأتقنه ، فقال لى الشيخ الأستاذ أبو الحسن ابن الطفيل بن عظيمة : هذا خط **ابن مقلة** ، وأنشد :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لو أنها مقـل

ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل فى القدر والوضع ، فالألفاظ على قدر واحد ، واللامات كذلك ، والكافات والواوات ، وغيرها بهذه النسبة[8] .

وكانت المخطوطة الموجودة فى مسجد قرطبة الجامع من أشهر المصاحف على الإطلاق ، ويقال إنها مصحف الخليفة عثمان ، واعتبرها الأندلسيون أثرا مباركا ، يخرجونها يوم الجمعة عند الصلاة فى احتفال عظيم ، وتحفظ فى صندوق فخيم ، وطبقا لما يرويه ابن بشكوال كانت موجودة فى المسجد حتى عام ٥٥٢هـ = ١١٥٧م ، ونعرف فيما بعد

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٣٥٩ ، طبعة الدار المصرية .
(٢) نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٢٩٠ ، طبعة إحسان عباس .
(٣) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ١٩٣ ، طبعة الدار المصرية .
(٤) التكملة ، الترجمة ، ١٨٥٠ ، جامعة القاهرة .
(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ، ١٣٠٦ ، طبعة الدار المصرية .
(٦) الإحاطة ، المجلد الثانى ، الورقة ١٦٧ ، من مخطوطة الأسكوريال .
(٧) المصدر السابق ، المجلد الأول ، الورقة ٣٦ .
(٨) نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٣٠٤ ، طبعة إحسان عباس .

أن أمراة الموحدين كانوا يحملونها فى رحلاتهم تبركا بها[1] ، وفى عام ٧٣٧هـ = ١٣٣٦م كانت توجد فى خزانة ملوك تلمسان ، ثم غنمها البرتغاليون ، وانتهى بها المطاف عام ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م عند تاجر فى مدينة فاس ، ويقول آخرون أن المسيحيين دخلوا قرطبة فى زمن ابن حمدين ، وأحرقوا المخطوطات التى فى المسجد الجامع ، ومن بينها مخطوطة مصحف عثمان هذه[2] .

● **المكتبات عند أهل الذمة :**

ولكن عاصمة الخلافة المزدحمة بالسكان لم تكن وقفا على المسلمين وحدهم ، وإنما كانت تعيش فيها أيضا طوائف مسيحية كثيرة العدد ، تمارس طقوسها الدينية مستقلة وحرة ، ولهم كنائسهم ورهبانهم ، وأساقفتهم ، وأبناء يتعلمون على النمط الذى كان شائعا ، وينهلون من الأفكار التى كانت سائدة ، ويقتدون بالنماذج التى حولهم ، وهو ما يمكن أن نستنتجه من شهادة ألبرو القرطبى Alvaro de Cordoba وهو مسيحى مستعرب ، وأصبح مطران العاصمة ، ولا يمكن أن يتهم بالانحياز لصالح اللغة العربية أو المسلمين ، كتب عام ٨٦٤م يقول :

« من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين بديننا على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو « الأنبياء » أو « الرسل » ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يبحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها فى شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة ، ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناقة . يا للحزن ! ، مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولا تينيتهم ، وينسون لغتهم نفسها ، لأن الفصاحة العربية تسكرهم ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلما عليه ، وتستطيع أن تجد جمعا لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية » .

ذلك أن سياسة التسامح الحكيمة والهادفة التى سار عليها الأمويون الإسبان لم تستثن المسيحيين من تولى الوظائف العامة ، بما فيها العمل فى قصر الخلافة نفسه ، أينعت

---

(١) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٣ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٦٠٥ ، طبعة إحسان عباس ، والإدريسى طبعة دوزى ، ص ٢٦٠ .

ثمارها ، باستثناء تلك الأيام الحزينة التى سالت فيها دماء الشهداء فى شوارع قرطبة[1] ، ومعها عرف الخلفاء كيف يخففون من حدة التوتر والتصادم الذى تؤدى إليه ممارسة الأديان المختلفة بين رعاياهم .

وترك اليهود أيضا موجة العصر تحملهم ، وهم شعب يرضى بالحياة فى أى مكان ، لأنه قبل كل شىء وبعده مكروه بقدر متساو فى كل مكان ، وموضع البغضاء من الجميع ، وكانت بيعهم ومدارسهم تتلقى **العون من إخوانهم فى المشرق** ، **ويساعدهم فى أبوة حانية حسداى** اليهودى الشهير ، طبيب الحكم الثانى الخاص ، ولم يهمل اليهود الدراسات العربية ، وفى لغتها تعودوا أن يكتبوا ، وبكتبها كانوا يثرون مكتباتهم ويرى مونك Munk أن اليهودى **يوسف** بن إسماعيل وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة كان من عشاق الكتب المشهورين فى أسبانيا الإسلامية[2] .

● الكتاب بين الصقالبة :

وقد تسربت عدوى حب الكتاب إلى جمهرة من الذين اعتنقوا الإسلام من الجليقيين والقطلونيين والفرنسيين والإيطاليين ، وبعضهم كان خصيا ، فهو مهيأ للعمل داخل

---

(١) يشير إلى حركة تزعمها مطران قرطبة يولوجيوس ، وبدأت فى أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الثانى « ٨٢٢ – ٨٥٢ » ، وكانت تستهدف استفزاز المسلمين بسب النبى عليه الصلاة والسلام وسب الدين الإسلامى ، ولما رفض القسيس برفيكتوس أن يرجع عن قوله أو يتوب عنه ، أعدم فى عيد رمضان من عام ٨٥٠م ، واتسعت الحركة فجاء بعده راهب يسمى إسحاق ، وتقدم إلى القاضى بحجة أنه يريد اعتناق الإسلام ولكنه أخذ يكيل اللعنات للنبى والإسلام ، فاستتيب ولما رفض أعدم أيضا ، وجاء بعدهم عدد من العلمانيين صنع الشىء نفسه ، فعقد الأساقفة مجلسا بإيحاء من الأمير حظر على المسيحيين أن يسعوا إلى الموت بهذه الطريقة ، ولكن ذلك لم يجد نفعا ، وجاء الدور على فتاة صغيرة جميلة ، من أب مسلم وأم مسيحية تدعى فلورا (= زهرة) ، ومعها راهبة شابة تدعى مريم ، وكانت هذه أختا لأحد الرهبان الذين أطيحت رءوسهم ، وتقدمتا بتأثير الإغراء فسبتا النبى والإسلام ، ولكن القاضى الرحيم اكتفى بزجهما فى السجن ، وكان يولوجيوس قد زج به فى السجن أيضا ، وكان يعشق فلورا عشقا عنيفا ، وبذل كل ما فى وسعه من إغراء ، مستعملا فصاحته ، ليشجع البنت التى أحبها وزميلتها ، وقد بدا عليهما التردد ، فلم تتراجعا ، ورفضتا التوبة ، ونفذ فيهما حكم الإعدام فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥٠ ، وعندما تولى الأمير محمد آثر أن يأخذ الأمر بالحسم الذى يتفق وخطورة هذه الأحداث ، فأصدر أمرا بإعدام يولوجيوس نفسه ، بعد أن كان قد أعدم فى هذه الموجة غير العاقلة ، ولم يكن لها ما يبررها ، أربعة وأربعون شخصا . « المترجم » .

(٢) مونك ، دراسات عن فلاسفة اليهود والعرب ، ص ٤٨٠ . ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ١ ص ٤٤٥ – ٤٤٧ .

وانظر الفصل الخاص بالقصيدة التى فجرت ثورة فى كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧ .(المترجم)

الحريم ، دون خطر منه على شرف السيدات ، أو موظفين فى قصر الخلافة أو الجيش ، ويصلون عادة إلى قرطبة فى سن الطفولة ، وقد اشتراهم الأمويون لهذه الغايات ، أو تلقوهم هدايا من ملوك أوربا ، حتى أن كونت برشلونة أرسل فى مناسبة واحدة عشرين فتى خصيا هدية للحكم الثانى استرضاء له ، وكانوا يعلمونهم فى عناية ، ويربونهم بطريقة تجعلهم فيما بعد مهيئين لأن يصبحوا أدباء ، ينظمون الشعر ، ويكتبون نثرا راقيا ، وكل ذلك فى اللغة العربية الفصحى ، ولهذا أخذوا يكونون لهم فى بيوتهم مكتبات خاصة بهم ، وإلى هذا القدر بلغ حب الكتب وعشقها[1] .

● مشهد منافسة فى سوق الكتب :

هذه الهواية التى شاعت فى البدء بين المثقفين فحسب ، أصبحت موضع التقليد من أولئك الذين يحبون أن يتجاوزوا واقعهم ، وأن يعدوا بين المثقفين ، على نحو ما يحدث فى أيامنا هذه ، وبعض هؤلاء الهواة بلغوا فى بعض الأحيان درجة من الحمق يصبحون معها منافسين مرعبين لعشاق الكتب الحقيقيين ، ولنبرهن على هذا إليك ما حكاه لنا الرحالة الشهير ، وعاشق الكتب الذائع الصيت الحضرمى ، عن زيارته لأحد أسواق الكتب المعروفة فى قرطبة ، حيث تباع الكتب عادة فى مزاد علنى يقوم عليه دلال ، يقول :

« أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب لى بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه ، فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا ، أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه ما لا يساوى ، قال : فأرانى شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له ، أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد ، استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمى : فأحرجنى ، وحملنى على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند

---

(١) دوزى ، تاريخ مسلمى إسبانيا ، جـ ٣ ص ٦١ .

مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان عنده ، وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بينى وبينه »[1] .

ويزيد **ابن سعيد** المؤرخ ، وهو الذى أمدنا بالقصة السابقة ، كلمات سمعها من والده : « وهى – أى قرطبة – أكثر بلاد الأندلس كتبا ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب ، وينتخب فيها ، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به »[2] .

وذلك المشهد يرسم ، فيما أرى ، أفضل من أى وصف آخر ما كانت عليه سوق الكتب فى قرطبة ، وتمكن هذه الهواية من النفوس حتى أصبحت مجرد ترف ، وهو يقدم لنا طبقتين من هؤلاء الهواة : طبقة الذين ينحدرون من أصول طيبة ويظلون بلا كتب ، وطبقة عشاق المظاهر الذين يشترونها لكى يشيروا إليها بأصابعهم فى بيوتهم ، بدون غاية نافعة مرجوة ، وهذه الدهشة نفسها التى أحدثتها فى أعماق ذلك الرحالة الغريب شاهد صدق على أن مثل ذلك المشهد لا يحدث فى بلده عادة .

● **حركة النشر فى قرطبة :**

سيكون من المثير أن نحاول ظنا تقدير عدد الكتب التى كانت تنسخ فى قرطبة سنويا ، ومن الصعب تحديدها بدقة . ولكن إذا أخذنا فى الحسبان أن عدد الطلاب الذين كانوا يترددون على العاصمة للدراسة سنويا يتراوح بين خمسة وستة آلاف ، وأن ألفا منهم كانوا يحضرون فصلا دراسيا واحد ، على أستاذ واحد ، وأنهم جميعا يكتبون كل ما يملى عليهم من محاضرات أساتذتهم ، وأنهم يدرسون فى العام الواحد أكثر من كتاب ، وإذا أخذنا فى الحسبان أيضا المئات العديدة من السيدات والفتيات اللائى كن يعملن فى نسخ القرآن الكريم وكتب الأدعية والصلوات مهنة ، وأن هناك من كان يكمل نسخ المصحف كله فى أسبوعين ، وفضلا عن ذلك ، إذا عرفنا أن جمهرة من الوراقين كانت تدفع رواتب ثابتة لنساخين محترفين خاصين بهم ، وأن المكتبات الخاصة كانت تستخدم جمهرة

(١) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٦٣ ، طبعة إحسان عباس .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٤٦٢ .

من النساخين والمختصين بهذه المهنة ، إذا أخذنا كل ما مضى فى الاعتبار أمكن لنا أن نتبين الرقم ولو تقريبا ، وأنه يتراوح بين ستين وثمانين ألف كتاب سنويا ، ولن نكون فى هذا غالين أو مبالغين .

وقد أورد لنا ابن بشكوال أشعار **ابن أسد** التميمى القرطبى ، وكان أستاذا نابها ، وفيها يعبر عن سروره وقد أحاط به ألف من طلابه فى المسجد الجامع بقرطبة ، وأمام كل واحد منهم مقلمته ، فيها قلمه ودواته ، وعلى استعداد لأن ينسخ كل ما يملى عليه[1] . واشتهر الأندلسيون بالمهارة فى النسخ ، وتجليد الكتب ، وطوفت شهرتهم حتى بلغت المشرق ، وأشاد بها الرحالة المقدسى فى كتابه .

إذا وازنا بين ما كان يجرى فى قرطبة إذ ذاك وبين حركة النشر المعاصرة وجدناه قليلا جدا ، ولكنه عظيم للغاية إذا قيس بواقع تلك الأيام ، وإذا أخذنا فى الاعتبار أنها نسخ مخطوطة ، وأن أوربا كلها فى ذلك الوقت لم يكن لديها مثل هذه المجموعات ،وأعتقد أننا لا نبعد عن الواقع كثيرا حين نقول إن قرطبة الإسلامية عرفت من الكتب والمكتبات وهواة الكتب أكثر مما لدينا الآن ، أكثر مثلا مما فى سرقسطة أو بلنسية رغم أنهما من كبريات مدن إسبانيا المعاصرة ، ويفوقان الآن عددا وحجما ما كانتا عليه أيام الدولة الإسلامية ، وفى عصر ازدهار أدبى ، وهو آخر القرن التاسع عشر ، ويجىء بعد أربعة قرون طوال من اختراع المطبعة .

● المنصور بن أبى عامر والكتاب :

وأراد **المنصور بن أبى عامر** أن يبارى الحكم فى تشجيع الثقافة وحب الكتب ، وكان والده عبد الله بن محمد من أهل قرطبة ، وأصله من الجزيرة الخضراء رحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبذل جهدا كبيرا فى تصحيح الكتب التى درسها ، وحصل عليها ، وأثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى ، وقال : كان لى خير صديق أنتفع به وينتفع بى ، وأقابل معه كتبه وكتبى[2] .

---

(١) الصلة ، الترجمة ٤٧٤ ، طبعة الدار المصرية .
وانظر ص ١١١ من هذا الكتاب . « المترجم » .

(٢) نفح الطيب ، جـ ١ ص ٩٠٤ طبعة أوربا و جـ ٢ ص ٦٤٦ طبعة إحسان عباس .

وصنع معه كبار الأدباء فى قرطبة ما صنعوه مع الحكم من قبل ، فأهدوه كتبهم التى ألفوها ، وجاء إلى قرطبة فى زمنه **صاعد البغدادى** الشهير ، وأراد أن ينافس **أبا على القالى** الذى أنار عهدى الخليفة الناصر وابنه الحكم من بعده ، وألف له كتابه **الفصوص** ، على نحو كتاب **النوادر لأبى على** ، وكافأه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار . وكان صاعد عالما باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فكه المجالسة ممتعا[1] .

وألف حسان بن **مالك بن أبى عبدة** من الأئمة فى اللغة ، ومن بيت جلالة ووزارة ، كتاب **ربيعة وعقيل** ، على مثال كتاب **أبى السرى** سهل بن أبى غالب الذى ألفه أيام الرشيد ، ويقول عنه **ابن حزم** : من أصلح ما ألف فى هذا المعنى » ، وسبب تأليفه أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب أبى السرى يدرسه ، وهو معجب به ، فخرج من عنده ، وعمل هذا الكتاب ، وبرع فيه تأليفا ونسخا وتصويرا فى أسبوع واحد ، وقدمه إلى المنصور فسربه ، ووصله عليه[2] .

وكان **المنصور** يخص عددا من الكتب بعنايته ، ويحب أن يقرأ فيها كل ليلة ، ومن بينها كتاب « الجواس » لصاعد البغدادى أيضا ، « وهو كتاب مليح جدا ، أخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف به ، حتى رتب له من يخرجه أمامه كل ليلة[3] . وأمر أن تزين مخطوطة المصحف المنسوب إلى عثمان بن عفان بالجواهر[4] ، ولكنه ارتكب خطأ لا يغتفر حين أمر بإحراق جانب من مكتبة الحكم الثانى[5] .

وكان **محمد بن عبد الرحمن بن معمر** اللغوى ، من أهل قرطبة ، **هو خازن مكتبة المنصور** وابنه المظفر من بعده ، « وكان حافظا للغة ، مشاركا فى الأدب ، **من أعلم الناس بالكتب** وعللها ، وألهجهم بجميعها ، وأفرزهم لخطوطها ، وأنسبهم لها إلى

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٥٣٦ والضبى ، الترجمة ٨٥٣ ، طبعة أوربا .

(٢) الضبى ، الترجمة ٦٦٢ .

(٣) المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ٣٣ ، طبعة سعيد العريان .

(٤) التكملة ، الترجمة ٩٥٢ ، طبعة أوربا .

(٥) نفح الطيب للمقرى ، جـ ١ ص ١٣٦ طبعة أوربا .

ورّاقها ، وكان يقابل كتب المنصور وولده من بعده ، متفقا لخزانتهم الرفية » ، وكتب تاريخ الأسرة العامرية[1] .

ولكن ذلك العصر ، وبلغ الغاية من البهاء والروعة ، لم يستمر طويلا ، وسادت الحرب الأهلية فى قرطبة بعد أيام المنصور ، وافتتح البربر ، ومنهم الجانب الأكبر من القوات الملكية ، عصرا من الفوضى والهمجية ، فهم يسرقون القصور ، ويحرقون المكتبات ، ورحلت الأسر القرطبية الغنية إلى المحافظات ، وهرب الطلاب والأساتذة من العاصمة وأنشأوا مراكز تربوية جديدة ، ونشروا هواية حب الكتب فى المدن التى رحلوا إليها ، والتى أصبحت فيما بعد عواصم لدول ملوك الطوائف ، وانفصلت عن طاعة السلطة المركزية المتردية ، وظلت فى قرطبة العاصمة تتجادل وتتهاوى تدريجا ، إلى أن سقطت نهائيا .

ورغم ذلك واصلت عاصمة إسبانيا الإسلامية دورها ، مركزا رئيسيا للحياة الأدبية والعلمية فى تلك الأيام ، وازدهرت فيها صناعة الكتاب ، وكثر عشاقه ، ومن بين هؤلاء :

● **هواة وخطاطون آخرون :**

لقد جمع **فاتن** فى خزانته عددا كبيرا من الكتب وكان بين فتيان[2] المنصور بن أبى عامر ، أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب ، وحتى ناظر صاعدا البغدادى فقطعه ، وظهر عليه وبكته ، وأعجب المنصور منه ، ولما توفى فاتن عام ٤٠٢هـ ١٠١١م « بيعت فى تركته كتب مضبوطة جليلة مصححة »[3] . وأنشأ **أبو على الغسانى** مكتبة له ، كانت من أثرى المكتبات كتبا على أيامه ، وأميز تصنيفا ، وتضم كتبا من مختلف أنواع العلوم[4] .

وكان **ابن الموصل** ، محمد بن يحيى الغافقى من أهل قرطبة ، « أديبا كاتبا ، **جماعا لدقاتر العلم** من لدن صباه ، منتقيا لكرائمها ، بصيرا بخيارها ، عارفا بخطوطها ، يحتكم إليه فى ذلك ، مؤثرا لها على كل لذة ، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٠٦٨ ، طبعة القاهرة .

(٢) كلمة «فتى» تطلق فى الأندلس على الصقالبة الخصيان الذين يعملون فى قصر الإمارة، أوالحجابة. «المترجم»

(٣) نفح الطيب ، جـ٢ ص٥٧ طبعة أوربا . وجـ٣ ص٨٢ طبعة احسان عباس .

(٤) ابن بشكوال ، الترجمة ٦٢٦ ، طبعة مدريد .

بالأندلس بعد الحكم الخليفة . وكان عنده **إصلاح المنطق** بخط أبى على القالى ، **والغريب المصنف** أصل أبى على ، **ونوادر ابن الأعرابى** بخط أبى موسى الحامض ، **وتاريخ أبى جعفر الطبرى بصلة الفرغانى** بخط ابن ملول الوشقى . بيع هذا كله فى تركته ، وأغلى فيها حتى لقومت الورقة فى بعضها بربع مثقال »[1] .

وجمع **جعفر بن محمد بن مكى اللغوى كتبا كثيرة** ، وكان عالما باللغات والأدب ذاكرا لهما ، متفننا لما قيده منهما ، ضابطا لجميعها ، وعنى بذلك عناية تامة[2] . وكان **ابن ذكوان** ، محمد بن أحمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من أهل العلم والحفظ والنباهة ، والذكاء والفهم ، ممن عنى بالعلم ، **واقتنى الكتب الغريبة**[3] . وصنع مثله **ابن الصابونى** ، هشام بن عبد الرحمن ، ورحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج ، ولقى علماءه ، وكان خيرا فاضلا ، عفيفا ، مخزون اللسان ، جيد المعرفة ، حسن الشروع فى الفقه والحديث ، دؤبا على النسخ ، **جماعة للكتب ، جيد الخط**[4] .

وكان **ابن عون المعافرى** ، محمد بن أحمد من أهل قرطبة ، فقيها فاضلا ، ورعا ، دينا عفيفا ، متواضعا متصاونا ، منقبضا عن الناس ، مواظبا على الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان معتنيا بالعلم ، مشهورا بالمعرفة والفهم ، **كثير الكتب ، جامعا لها ، باحثا عنها**[5] . ومثله **ابن خيرة ، محمد بن عبد الله** ، وهو من جلة العلماء الحفاظ تفنن فى المعارف كلها ، كثير الدراية ، واسع المعرفة ، حافل الأدب ، **وجمع كثيرا من الكتب**[6] . وجمع الأمير هشام من أحفاد عبد الرحمن الناصر مكتبة غنية ، ثم اشتراها منه الخليفة سليمان المستعين[7] .

واشتهر بين عشاق الكتب **ابن برد الأنصارى** ، سلمة بن سعيد ، من أهل أستجه وسكن قرطبة ، ورحل إلى المشرق حاجا ، ثم أقام فيه ثلاثا وعشرين عاما ، لقى خلالها جلة علمائه ، وأدب فى بعض أحياء العرب ، واضطرب فى آفاقه يجمع كتب العلم ، واتخذ من مصر موئلا ، فكلما اجتمع له من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ، ثم

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٠٧٨ ، طبعة مصر .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ٢٩٨ ، طبعة الدار المصرية .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١١٥٠ .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٢٨ .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٦٠ .

(٦) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٠٢ .

(٧) التكملة ، الترجمة ٢٠٧٩ ، طبعة مدريد .

انزعج بالجميع إلى الأندلس ، يسوق بين يديه **ثمانية عشر جملا مشدودة من كتب ، في كل فن من فنون العلم** ، ولم يتم له ذلك إلا بمال كثير حمله معه إلى المشرق[1] .

وكان **ابن عريب** القيسى **وراقا ملحوظا** ، وكتب علما كثيرا ، وسمع الحديث فاتسع ، ولم يزل يطلب العلم إلى أن توفى[2] . ومثله ابن أسود الغسانى البجانى ، فقد **احترف الوراقة** ، وكان **حلو الخط** ، حسن الرتبة ، كثير الدربة ، مقتنعا فى دنياه ، متقللا منها ، منقبضا عن الناس ، مقبلا على ما يعنيه[3] . وكان الناس يتنافسون على كتب **يمن بن محمد** الوراق ، لملاحة خطه وضبطه ، وحسن كتابته[4] ، وكتب **الخال القرطبى** ، محمد بن حكم ، كثيرا من الكتب بخطه ، فى فنون مختلفة من العلم ، وكان **أنيق الوراقة ، وظل الناس يتنافسون على الكتب التى بخطه حتى بعد وفاته بأعوام** طويلة[5] .

وظل سعيد بن سلمة يمارس **حرفة النسخ والكتابة ستين عاما كاملة** ، وكانت غاية فى الصحة ، ونهاية فى الضبط ، ولم يكن ثمة كتب أصح منها ، وكان أمام الفريضة بالمسجد الجامع بقرطبة[6] .

وكان **سعيد بن نصر** من أهل الرواية والاجتهاد ، والدراية بطلب العلم والحديث ، وتجويد الكتب والمقابلة لها وتصحيحها ، يلجأ إليها فيها ، ويعارض بها[7] .

وبعض الأدباء كان يعتمد فى عيشه على مهنة الوراقة ، فقد اقتصر عليها مروان بن أمية ، حين غادر قرطبة خلال أيام الفتنة ، ولم بها شعثه إلى أن مضى لسبيله[8] ، وأثناء هذه الحرب المشؤومة تعرضت مكتبات كثيرة للسرقة والنهب ، فقد حاول الزهراوى ، عمر بن عبيد الله الذهلى ، أن ينجو بمكتبته ، فشد ما اختاره منها ، فى ثمانية أحمال ، ليخرجها من داره فى الربض الغربى إلى مكان آخر أكثر أمنا ، ولكنه لم يستطع أن يحقق غايته فقد انتهبها البربر[9] .

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٥١٣ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٦١٤ . طبعة الدار المصرية .

(٥) التكملة ، الترجمة ١٠٣١ ، الطبعة المصرية .

(٦) ابن بشكوال ، الترجمة ٤٨٥ .

(٧) المصدر السابق ، الترجمة ٤٦٨ .

(٨) التكملة ، الترجمة ١٧٤٤ ، الطبعة المصرية .

(٩) ابن بشكوال ، الترجمة ٨٦٠ ، طبعة الدار المصرية .

وكل هذه المكتبات كانت خاصة ، وثمة مكتبات فى بعض المساجد ، أوقفها أصحابها لصالح الطلاب ، ولكنها لم تكن مفتوحة لعامة الناس ، وليس صحيحا ما أورده ميخائيل غزيرى فى فهرسه لمكتبة الاسكوريال[1] ، وعنه نقله كثيرون ، أنه كان فى أسبانيا ستون مكتبة عامة ، ولم تكنْ مكتبة الحكم الحكم أيضا مفتوحة للجمهور كما ذكر بعضهم .

● **مكتبات إشبيلية :**

وإذا كانت قرطبة المدينة الأولى فيما يتصل بالتعليم وحب الكتب ، فقد كانت الثانية **إشبيلية** ، موطن المعتمد ، والمدينة التى لا مثيل لها، وفى إحدى المناسبات جرى حوار بين **ابن رشد** فيلسوف قرطبة الشهير، **وبين ابن زهر** طبيب إشبيلية الكبير ، بين يدى **المنصور يعقوب أمير الموحدين**، حول أى المدينتين أفضل، وانتهى الحوار بجملة مبينة لابن رشد تصور الواقع فى دقة: «ماأدرى ماتقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية »[2].

وهذه الرواية ، وهى تصور طابع المدينتين فى دقة ، حسمت النقاش لصالح العاصمة ، ولكن يجب أن نفسح لإشبيلية المكان الثانى ، وإذا لم تنله بمكتبة الأسرة الملكية فيها ، وكانت واحدة من أعظم المكتبات ثراء ، أو بعدد هواة الكتب وعشاق المكتبات ، الذين ازدهروا فيها ، فإنها تستحقها بسوق الكتب الذى كان قائما بها ، ونفقت شهرته فبلغت كل الأنحاء ، وأصبح مهبط الأدباء بحثا عن النسخ النادرة والطريفة . ويشير **ابن الخطيب** ، المؤرخ الغرناطى الشهير ، كثيرا إلى الكتابة الإشبيلية كشىء متميز عن بقية الخطوط الأندلسية[3] ، ويشير **ابن الأبار** فى كتابه **تكملة الصلة** إلى شارع الوراقين فى إشبيلية[4] ، وعثر **ابن مزين** فى أحد حوانيته على رسالة نادرة جدا للرازى[5] ، وكان **ابن سارة** الشنترينى الشاعر يسكن إشبيلية ، ويتعيش فيها من الوراقة[6] ، وبلغ أبو زيد الجذامى شهرة واسعة فى مهنة الوراقة فى إشبيلية ، ولكنه تركها واستوطن قرطبة[7] .

---

(١) جـ ٢ ص ٧١ .

(٢) النفح ، جـ ١ ص ٤٦٣ ، طبعة احسان عباس .

(٣) جيانجوس ، الترجمة الانجليزية لنفح الطيب ، جـ١ الملحق ٤٢ .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٦٦٣ ، طبعة القاهرة .

(٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، الترجمة الإسبانية ، ص١٧٠ .

(٦) التكملة ، الترجمة ١٩٩٤ ، طبعة القاهرة .

(٧) التكملة ، الترجمة ١٦٣٤ ، طبعة مدريد .

ويمكن أن نعد بين هواة الكتب المشهورين فى إشبيلية : **شرف الدولة** ابن المعتمد بن عباد ، فهو من « أحسن الناس سمتا ، وأكثرهم صمتا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، **مسارع فى اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين** ، مفتح فيها من خطه زهر الرياحين »[1] . وكان **ابن الأحدب** ، محمد بن عبد الله ، « قديم الطلب ، **جامعا للكتب والأصول** »[2] ، وشهرة **أبو** بكر بن العربى ، محمد بن عبد الله ، طوفت بالعالم الإسلامى كله ، فهو « فقيه حافظ ، عالم متفنن أصولى ، محدث مشهور ، أديب رائق الشعر ، رئيس وقته » ، رحل إلى المشرق صحبة أبيه ، وأقام بالعراق ومصر والشام ، وتفقه هناك ، ثم انصرف إلى الأندلس ، وتولى قضاء إشبيلية ، ثم انتقل إلى قرطبة وحدث بها ، **وكان يبيت فى منزله بقرطبة والكتب عن يمينه وشماله ، وينام فى مكتبته إذا غلبه النوم ، دون أن يغير أثوابه ، وكلما استيقظ مديده إلى كتاب ، والمصباح مضىء لا يطفأ** »[3] .

وأوقف **محمد بن خير** الإشبيلى كل وقته على تقييد الآثار ، والعناية بتحصيل الرواية ، وكان مقرئا مجودا ضابطا ، محدثا جليلا متقنا ، أديبا ، نحويا ، لغويا ، واسع المعرفة ، رضيًا مأمونا ، كريم العشرة خيرا فاضلا ، ما صحب أحدا ، ولا صحبه أحد ، إلا أثنى عليه ، « وكتبه فى غاية الصحة والإتقان لكثرة ما عاناها ، وعالج تصحيحها بحسن خطه ، وجودة تقييده وضبطه ، وفى ذلك قطع دهره ، وأنفق حياته فلحق بالمتقدمين ، وأربى على المتأخرين ، وأدى ذلك إلى المغالاة فيها بعد وفاته ، حتى بلغت أثمانها الغاية ، ولم يكن له نظير فى هذا الشأن ، مع الحظ الأوفر من علوم اللسان » ، وعدد من سمع منه أو كتب إليه نيف ومائة رجل ، قد احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم فى غاية الاحتفال والإفادة ، لا يعلم لأحد من طبقته مثله[4] . وقد أهدى الفقيه الشهير **أبو** الوليد الباجى مكتبته إلى خطيب المسجد الجامع فى إشبيليه أبى الحكم بن الحجاج اللخمى[5] .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ٤ ص ٩٦ . طبعة احسان عباس .

(٢) ابن بشكوال ، الترجمة ١١٥٦ .

(٣) الضبى ، الترجمة ١٧٩ .

(٤) التكملة ، الترجمة ١٤٢٤ ، طبعة القاهرة .

● وقد نشر برنامجه فى مدريد بعنوان : « فهرسة ابن خير » باعتناء كوديرة وخوليان ريبيرا ، عام ١٨٩٣ ، وعن هذه الطبعة نشر فى القاهرة تصويرا عام ١٩٦٣ . « المترجم » .

(٥) التكملة ، الترجمة ١٦٢٦ ، طبعة مدريد .

● مكتبات المرية :

وأخذت مدينة المرية بحظها من الشهرة فى هذا المجال ، ولو لم يكن قد عاش فيها من هواة الكتب المشهورين غير **أبى جعفر أحمد بن عباس** وزير زهير الصقلبى لكفى ، ويقول معاصروه « إنه بذ الناس فى وقته بأربعة أشياء : المال ، والبخل ، والعجب ، والكتابة » . « وكان حسن الكتابة ، جميل الخط ، مليح الخطاب ، غزير الأدب ، قوى المعرفة ، مشاركا فى الفقه ، حاضر الجواب ، **جماعا للدفاتر ، حتى بلغت أربعمائة الف مجلد ، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها** ، وبلغ ماله خمسمائة ألف مثقال جعفرية سوى غير ذلك » . وكان « كلفا بالأدب ، مؤثرًا له على سائر لذاته ، جامعا للدواوين العلمية ، مقتنيا للجيد منها ، مغاليا فيها ، نفاعا من خصه بها ، لا يستخرج منها شيئًا لفرط بخله بها ، إلا لسبيلها ، حتى لقد أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها ، وجمع منها ما لم يكن عند ملك » . و« لم يجتمع عند أحد من نظرائه ما اجتمع عنده من عين و ورق ، ودفاتر ، وخرق ، وآنية ، ومتاع وأثاث وكراع » . وكان يعشق لعبة الشطرنج ، وينفق فيها وقت فراغه[1] .

ويذكرون فضلا عن عاشق الكتب الكبير هذا عبد الحق بن غالب **بن عطية** ، قاضى المرية ، وكان عالما بالتفسير والأحكام ، والحديث والفقه ، والنحو واللغة والأدب ، حسن التقييد ، له نظم ونثر ، « غاية فى الذكاء والدهاء ، والتهمم بالعلم ، **سرى الهمة فى اقتناء الكتب** ، توخى الحق ، وعدل فى الحكم ، وأعز الخطة »[2] . ويشير ابن الأبار فى التكملة إلى بربرى من صنهاجة ، أقام فى المرية ، يدعى **ميمون بن ياسين** ، وأنه اعتنى بالآثار واقتنى الأصول ، وهو الذى اشترى صحيح البخارى فى مكة من أبى ذر الهروى ، وابتاعه منه بمال جليل ، وأوصله إلى المغرب[3] . وإلى **نصر** الوراق ، ولحقه هذا اللقب لأنه كان يعمل فى الوراقة[4] .

---

(١) نفح الطيب جـ٣ ص ٥٣٥ ، طبعة إحسان عباس . والإحاطة لابن الخطيب ، جـ١ ص ٢٦٧ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان .

(٢) نفح الطيب ، ص ٥٢٦ ، طبعة إحسان عباس ، والإحاطة جـ٣ ص ٥٣٩ ، طبعة عنان .ويشير ابن الأبار فى التكملة إلى بربرى من صنهاجة ، أقام فى المرية ، يدعى **ميمون** بن ياسين ، وأنه اعتنى بالآثار واقتنى الأصول ، وهو الذى اشترى صحيح البخارى فى مكة من أبى در الهروى ، وابتاعه منه بمال جليل ، وأوصله إلى المغرب . وإلى **نصر** الوراق ، ولحقه هذا اللقب لأنه كان يعمل فى الوراقة .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٨٢٣ ، طبعة القاهرة .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٨٥٥ .

● مكتبات مالقة :

يذكرون من كبار النساخين والوراقين فى هذه المدينة **ابن مدرك الغسانى** ، محمد بن سعيد ، « وكان تاريخيًا نسابة ، بصيرا بالخطوط مميزًا لها ، حسن الخط ، موصوفًا بالإتقان والضبط ، ذا لسن وفصاحة ، واقتنى من الدواوين والدفاتر عظيمها ، فاق أهل بلده فى ذلك وكان وراقًا مشهورا[1] . ومنهم عيسى بن سليمان الرندى ، استوطن مالقه ، ورحل إلى المشرق ، وحج ، وأقام فى رحلته نحو ستة عشر عامًا ، ولقى جماعة من العلماء ، وقفل إلى المغرب ، وولى الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة ، « وكان محدثًا ضابط متقنا ، **حسن الخط ، كتب الكثير » ، على أنه امتحن بالأسر فذهب عنه كثير مما جلب**[2] .

وحفظ لنا المقرى البيتين التاليين لشاعر من مالقة ، أحمد بن رضى ، وفيهما يفضل الكتاب على ما عداه من متع الحياة :

ليس المدامـــة مما أســـتريح لــــه ولا مجاوبة الأوتــــار والنغـــم
وإنمــــا لـذتى كتب أطالعهـــــــا وخـــادمى أبدا فى نصرتى قلمى[3]

وكان **عثمان بن يحيى** بن محمد ، من بيت بنى منظور الإشبيليين ، أحد بيوت الأندلس المعروف بالنباهة ، « صدرًا فى علماء بلده ، أستاذا ممتعا ، من أهل النظر والاجتهاد والتحقيق ، ثاقب الذهن ، أصيل البحث ، مضطلعا بالمشكلات ، مشاركا فى فنون ، من فقه وعربية برز فيهما ، إلى أصول وقراءات وطب ومنطق ، وتزوج ابنة الفقيه أبى على بن الحسين ، فاستقرت عنده كتب والدها ، فاستعان بها على العلم والتبحر فى المسائل ، وقيد بخطه الكثير ، واجتهد وصنف ، وأقرأ ببلده ، متحرفا بصناعة التوثيق ، فعظم به الانتفاع[4] **وورث** محمد بن أحمد من بلش ، حفيد القاضى الشهير أبى الفضل **المكتبة الممتازة التى خلفها جده**[5] .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٤١٢ .

(٢) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٣٨٠ ، طبعة إحسان . والذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الترجمة ٩٠٧ ، طبعة إحسان عباس .

(٣) النفح ، جـ٣ ص ٣٢٥ .

(٤) الإحاطة ، جـ٤ ص ٧٦ ، طبعة عنان .

(٥) الإحاطة ، المجلد ، الورقة ١٦٣ من مخطوطة الإسكوريال .

وعرفت مدينة **رندة** عاشقًا عظيمًا للكتب ، محمد بن عبد الرحمن **اللخمي** ، وهو « رندى المنشأة ، إشبيلى الأصل ، يرجع بيته ، وبيت بنى حجاج ، وبيت بنى عباد ، إلى جرثومة واحدة ، وانتقل سلفه إلى رندة فى دولة بنى عباد » ، وكان « علما فى الفضيلة والسراوة ، ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتبا بليغًا ، أديبًا شاعرًا ، خطيبًا ، فصيح القلم ، زاكى الشيم ، مؤثرا لأهل العلم والأدب ، برا بأهل الفضل والحسب ، نفق بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء ، ولم تشغله السياسة عن النظر ، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع ، والإفراط فى اقتناء الكتب ، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها ، وأثرت أنديته عن ذخائرها » وقدم على غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن نصر ، فألحقه بكتابه ، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء ، وتقلد فى عهد خلفه الوزارة والكتابة ، ولقب بذى الوزارتين[1] .

● **مكتبات بطليوس :**

وتدين بطليوس بشهرتها فى هذا المجال ، وفى عالم الأدب ، إلى العالم المشهور بلقبه : المظفر بن الأفطس أميرها ، « وكان كثير الأدب ، جم المعرفة ، محبًا لأهل العلم ، جماعة للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن فى ملوك الأندلس من يفوقه فى أدب ومعرفة » . وألف كتابه **المعنون « بالتذكرة »** ، **والذى اشتهر أيضًا بالكتاب « المظفرى »** ، وجاء « فى خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ، ومثل وخبر ، وجميع ما يختص به علم الأدب » ، وكان يحضر مجالس العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد[2] .

وكان فى مدينة **شلب** وراقون أيضًا ، [ويقص علينا الشاعر **محمد بن حبوس الفاسي** : دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئًا ، فسألت عمن يقصد إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف **بابن الملح** ، **فعمدت إلى بعض الوراقين** ، فسألته سحاءة ودواة ، فأعطانيهما ، فكتبت أبياتا أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بى ورد على أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبا ، قلت : نعم ، فقال لى : من أى طبقات الناس

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٤٤ – ٤٤٦ ، طبعة عنان .

(٢) التكملة ، الترجمة ١١٠٢ ، طبعة مصر ، ونفح الطيب ، جـ٣ ص ٣٨٠ ، طبعة إحسان عباس .

أنت ؟ ، فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلى الطعام ، وجعل يحدثنى فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ثم دفع إلىّ صرة فيها اربعون مثقالا ، وقال : هذه من عندى . فتعجبت من كلامه ، وأشكل على جدا ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ ، فقال لى : سأحدثك : إنى وقفت أرضا من جملة مالى للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حر مالى ، يعنى الأربعين دينارا ، فدخلت عليه جائعًا فقيرًا ، وخرجت عنه شبعان غنيا[1] .

وكان **القنطرى** محمد بن عبد الله ، من أهل شلب ، من بيت فقه وحديث ، بعيد الصيت فى الحفظ والإيقان والضبط ، جمّاعة للدواوين والكتب ، مشاركا فى فنون من العلم[2] .

● **مكتبات طليطلة :**

وعن طليطلة حدث ولا حرج ، فقد احتلت ، كمركز للتعليم ، شهرة مستفيضة على امتداد العصور الوسطى ، وكان يرحل إليها علماء أوربا ليدرسوا العلوم العربية ، وفيها ظهرت مبعثرة بقايا مكتبة **الحكم الثانى** أيام فتنة البربر ، وعاش **بنو ذى النون** أمراؤها ، وبلغ حبهم للكتب غايته ، حتى أنهم كانوا يستولون على المكاتب الخاصة بالقوة ، سرقوا مكتبة الروشى وكان من أعظم هواة الكتب فى المدينة . وعندما شبت النار فى أسواق مدينة طليطلة وأحرقتها كانت دار أحمد بن محمد ويعرف **بابن ميمون** فى الفرائين ، فاحترقت الدار إلا الغرفة التى كانت فيها الكتب ، وكان فى ذلك الوقت فى الرباط ، « وعجب الناس من ذلك وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه » .

وكان ابن ميمون هذا « قد جمع من الكتب كثيرًا فى كل فن ، وكانت جلها بخط يده ، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحًا ، أمهات لايدع فيها شبهة مهملة ، وقل ما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم ، وكان لايزال يتتبع ما يجده فى كتبه من السقط والخلل بزيادة فى اللفظ أو نقصان منه فيصلحه حيث ما وجده ، ويعيده إلى الصواب ، وكانت كتبه ،

---

(١) المعجب ، ص ٢١٤ ، طبعة العربان .

● اقتصر المؤلف على الشاهد من القصة وأتيت بها كاملة لدلالتها الأدبية والاجتماعية. « المترجم» .

(٢) التكملة ، الترجمة ١٣٧٧ ، طبعة مصر . « المترجم » .

وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة »[1] . واعتنى **محمد بن بن إسماعيل** بلقاء الشيوخ ، يجمع الكتب والأصول ، « وكانت عنده جملة كثيرة من أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، وكان ذاكرا لأخيارهم وأزمانهم ، فكان يحتاج إليه بسببها ، ويسمع عليه فيها »[2] .

ويذكر ابن بشكوال أن **ابن الشيخ** ، سليمان بن محمد ، كان خطاطا بارع الخط فى المصاحف ، وأفنى عمره فى كتابتها[3] . وأن **ابن هلال القيسى** ، قاسم بن محمد ، نسخ جل كتبه بخطه ، « كان كثير الكتب فى الفقه والآثار ، حسن الضبط لها ، ثقة فى روايته »[4] . وكان ابن الحصار ، عبد الرحمن بن محمد ممن « عنى بالرواية والجمع لها ، والإكثار منها ، فكان واحد عصره فيها ، وكانت الرحلة فى وقته إليه ، وكانت الرواية أغلب عليه من الدراية ، وكان صدوقا فيما رواه منها . وكان حسن الخط ، جيد الضبط ، وكانت أكثر كتبه بخطه ، وكان صبورًا على النسخ ، ذكر عنه أنه نسخ مختصر ابن عبيد وعارضه فى يوم واحد ، وأنه كتب بمدة واحدة خمسة عشر سطرا »[5] .

ورحل **ابن حاتم التميمى** ، حاتم بن محمد إلى المشرق ولقى عددا من علمائه ، ثم انصرف إلى الأندلس وسكن طليطلة ، وكان « ممن عنى بتقييد العلم وضبطه ، ثقة فيما يروى ، وكتب **أكثر كتبه بخطه ، وتأنق فيها** ، **وكان حسن الخط** »[6] . واشتهر **ابن الحنشى** ، هشام بن عمر ، بأنه من أهل الخير والانقباض والثروة ، ورحل إلى المشرق حاجًا ، ولقى بها جماعة من العلماء ، **وجلب كتبا كثيرة حسانا ، وكتب بخطه كثيرا**[7]. ونشير أخيرا إلى **عبد الرحيم بن محمد** بن قاسم النحوى من وادى الحجارة ، وكان من أهل المعرفة والفهم ، والذكاء والحفظ ، قوى الأدب ، كثير الكتب »[8] .

---

(١) ابن بشكوال ، الترجمة ٣٧ ، ١٩٨ ، طبعة الدار المصرية .
(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٧٣ .
(٣) المصدر السابق ، الترجمة ٤٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٠١٩ .
(٥) المصدر السابق ، الترجمة ٧٠٤ .
(٦) المصدر السابق ، الترجمة ٣٥٤ .
(٧) المصدر السابق ، الترجمة ١٤٢٥ .
(٨) المصدر السابق ، الترجمة ٨٣٧ .

● **مكتبات سرقسطة :**

رغم أن سرقسطة كانت أبعد مدن الإمبراطورية الإسلامية الإسبانية عن العاصمة ، وأنها مقاطعة تقع على الحدود ، ويكثر فيها العسكريون ، ويسبق الاهتمام بشئون الحرب هواية الكتب ، فقد مسها تأثير حب العلم السائد ، ولو أن ذلك جاء متأخرا وعابرا ، ويتجلى ذلك واضحا فى أسرة **بنى هود** الذين حكموا المدينة فى أواخر أيامها الإسلامية ، واشتهر من بينهم **المقتدر** ، وكان فيلسوفا وفلكيا ورياضيا ، ولايزال اسمه محفوظا تحمله أنقاض قصر الجعفرية ، ولم يكن **المستعين** بأقل شهرة منه ، وأهداه ابن بقلارس كتابه المشهور فى الطب ، وأسماه **المستعينى** ، **وتزهو بعض المكتبات الأوربية اليوم بأنها تملك نسخًا مخطوطة منه**[1] . ولكن ما إن بدأت هذه الهواية تشب على ساقيها وتزدهر فى المنطقة ، وكانت شائعة على نحو كبير فى بقية المدن الأندلسية ، حتى استولى عليها الفونسو المقاتل ، ومع ذلك بقيت لدينا بعض الإشارات عن محبى الكتب هؤلاء فى قلعة أيوب ، وسرقسطة ، ووجدوا أنفسهم مكرهين على الهجرة بعد أن سقطت المقاطعة فى يد النصارى . ومن بين هؤلاء الهواة يشير ابن الأبار فى كتابه تكملة الصلة إلى **ابن سندور بن منتيل** ، عبد الله بن محمد ، وهو من سرقسطة ، « وكان معنيا بالرواية ولقاء الشيوخ ، وكتب بخطه علما كثيرا ودواوين جمة »[2] .

● **مكتبات بلنسية :**

كانت بلنسية المدينة المختارة للوراقين المهاجرين من مقاطعة أرغون ، فيها أقام **ابن سيدراى الكلابى** ، محمد بن سليمان مكتبته الضخمة ، بعد أن هرب من مدينته قلعة أيوب ، وقد وقعت فى يد النصارى إثر هزيمة المسلمين فى **وقعة كتندة** ، « فكان يبيع الكتب فى دكان له ، وكان أبوه أيضًا وراقا »[3] . وفيها استقر **مطروح التجيبى** ، محمد بن عبد الله ، وكان من قبل فى سرقسطة « وراقا يبيع الكتب ، إخباريا أديبا ، حلو النادرة فكيها » وجمع شعر ابن الجزار السرقسطى وسماه « روضة المحاسن وعمدة المحاسن »[4] ، وفى دكانه كان يجتمع الأدباء البلنسيون ، تجذبهم إليه ثقافته الواسعة ،

---

(١) سيمونيت ، المعجم ، ص ١٤٦ .

(٢) الترجمة ١٩٧٣ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٣٢٠ ، طبعة القاهرة .

(٤) حققه د . منجد مصطفى بهجت ، ونشره المجمع العلمى العراقى ، بغداد ١٤٠٩ = ١٩٨٨ «المترجم»

وشخصيته البشوش الراضية ، ومسلكه الرصين ، ومعاملته اللطيفة[1] . وإليها انتقل **ابن الصغير** ، من هواة الكتب فى سرقسطة ، ومن كبار تجارها ، وخلفه من بعده ابنه أحمد ، وأصبح نسّاخا ، **وله خبرة قوية** بأنواع الكتب وفنون المخطوطات ، وجمع مكتبة جيدة ، **وعين أخيرًا خازنًا لمكتبة أمراء الموحدين** .

ومن هؤلاء المهاجرين إلى بلنسية واشتهروا بهواية الكتب أو التجارة فيها : **ابن نوح الغافقى** ، محمد بن أيوب ، وهو أصلا من سرقسطة ، « ولم يكن فى وقته بشرق الأندلس نظير له تفننا واستبحارا . كان رأسا فى الراسخين من العلماء ، وصدرا فى المشاورين من الفقهاء ، قد برع فى علوم اللسان ، وتمرس حياته كلها بالمسائل ، وتقدم فى الفتيا ، وأطلع على الآداب ، واضطلع بالغريب ، وشارك فى التفسير ، وتحقق بالقراءات . وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرياسة فيه ، وبه اقتدى من بعده ، لم يسبقه أحد من أهل زمانه إلى ما تميز به فى ذلك حتى دونت عنه ، مع حسن الخط ، وبراعة الضبط، وتدقيق النظر ، والإمامة فى المعارف ، والبصر بالحديث ، والحفظ للأنساب والأخبار ، والإيضاح لما استغلق من معانى الأشعار الجاهلية والإسلامية ، وله تنابيه فى فنون شتى ، وتقييدات شاملة النفع والإفادة »[2] .

وكان **محمد بن محمد بن سليمان** الأنصارى النحوى ، ويعرف **بابن أبى البقاء نسبة إلى خاله ، من سرقسطة أصلا ، واستقر** فى بلنسية ، وعنى بالسماع والرواية ، مع الحظ الوافر من المعرفة والدراية ، يتحقق بعلم اللسان ، ويتقدم فى العربية ، عاكفًا على إقرائها والتعليم بها ، قائما على كتبها ، بصيرًا بصناعة الحديث ، مكبا عليها ، معنيا بها ، معانيا للتقييد ، مع حسن الخط وجودة الضبط . وكتب بخطه علما جما ، وربما تعيش من الوراقة أوقاتا لإقلاله »[3] .

ونعرف غير هؤلاء من هواة الكتب والوراقين من أهل بلنسية وما يصاقبها : **ابن غطوس** ، محمد بن عبد الله ، « وكان يكتب المصاحف وينقطها ، وانفرد فى وقته بالإمامة فى ذلك ، براعة خط ، وجودة ضبط ، ويقال إنه كتب ألف نسخة من كتاب الله عز وجل ، ولم يزل الملوك ومن دونهم يتنافسون فيها إلى اليوم ، وكان قد آلى على نفسه

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٦٢ .

ألايخط حرفا من غيره ، ولا يخلط به سواه تقربا إلى الله ، وتنزيها لتنزيله ، فما حنث فيما أعلم ، وأقام على ذلك حياته كلها ، خالفا أباه وأخاه فى هذه الصناعة التى اشتهروا بها »[1] .

وكان **الأروشى** عبد الله بن حيان ، نزيل بلنسية ، فقيها محدثًا عارفا ، وله همة عالية فى اقتناء الكتب وجمعها ، وجمع من ذلك شيئًا عظيمًا وذكر ابن علقمة فى تاريخه أن **ابن ذى النون** صاحب بلنسية **أخذ كتب الأروشى من داره ، وسيقت إلى قصره ، وبلغت مئة وثلاثة وأربعين عدلا من أعدال الحمالين ، يقدر كل عدل منها بعشرة أرباع ، وقيل أنه كان قد أخفى منها نحو الثلث**[2]. **وورث على بن هذيل البلنسى مكتبة أبى داود المقرى** ، زوج والدته ، وكانت تضم كثيرًا من المخطوطات القديمة[3] . وكان ابن عيشون المعافرى ، عبيد الله بن عبدالله من «لبرقاط» عمل أنيشة، من ثغور بلنسية الشرقية ، صاحب ثروة ويسار ، وبنى المسجد المنسوب إليه على مقربة من باب القنطرة من داخل بلنسية ، ووقف عليه دار السكنى من يؤم به، وكان نهاية فى الصلاح والفضل، وأعمال البر والخير ، وجيها متواضعًا ، لم يتزوج قط ، إخباريا محققا ، واقتنى من الدواوين والدفاتر كثيرًا »[4] .

واشتهر **ابن روبل** البلنسى بجمع الدواوين والدفاتر وتصنيفها[5] ، ومثله **أبو الحسن السرى** ، نسبة إلى سرة قرية قريبة من بلنسية[6] ، **وأبو عمر بن عياض الليرى** ، نسبة إلى لرية[7] ، **وابن هارون الشونى** ، محمد بن حسين ، نسبة إلى شون من أعمال بلنسية ، « وكان مشاركا فى الفقه ، عاكفا على عقد الشروط ، وولى الأحكام ببلنسية مرارا ، وكتب بخطه علما كثيرا » من بينها : رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى ، ومختصر الطليطلى ، والتيسير لأبى عمرو الدانى فى القراءات . **وابن سعدون** الأزدى ، عبد الله بن محمد ، « وكان من أهل المعرفة الكاملة بالآداب وفنونها ، ماهرا فى العربية واللغة ،

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٥٧١ .

(٢) الضبى ، الترجمة ٩٢٠ ، وابن باشكوال ، الترجمة ٦٣٤ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٨٥٨ ، طبعة مدريد .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ٢١٧٦ ، طبعة القاهرة .

(٥) ابن بشكوال ، الترجمة ١٤٣٠ ، طبعة مدريد .

(٦) التكملة ، الترجمة ١٩٢٢ ، والجذوة ، ص ٣٠٨ ، طبعة مدريد .

(٧) التكملة ، الترجمة ١٥٦١ ، طبعة مدريد .

أنيق الوراقة ، بديع الخط ، كتب بخطه علما كثيرا ، واستكتبه بعض الرؤساء فبرع نظمه ونثره »[1] . وكان **ابن توميل الأندى** ، نسبة إلى أوندة قريبا من بلنسية ، يتعيش من الوراقة ، إلى جانب قيامه بأعمال التوثيق[2] . ومحمد بن مروان ، ويعرف **بالأديب** ، أصلا من لرية وسكن بلنسية ، « كان حسن الوراقة معروفا بذلك ، وكتب بخطه علما كثيرا ، وتولى خطة السوق »[3] . **وابن نفيس العبدرى** ، محمد بن عبد الوهاب ، وأصله من طرطوشة ، ولجأ إلى بلنسية ، كان ضابطا حسن الوراقة ، وكتب بخطه علما كثيرا ، وكان يلقب بالوراق[4] .

وكان **ابن منتيال** الوراق ، عبد الله بن إبراهيم، من أهل «مربيطر» وسكن بلنسية، ورحل حاجا فسمع من جلة العلماء ، وكتب بخطه علما كثيرا على رداءته ، «وقفل إلى بلده»، وكان له دكان «بالقيسارية» يقعد فيه للتجارة ، ويبيع الكتب »[5] . وخلف بن عمر ، ويعرف **بالأخفش** ، من جزيرة شقر ، وسكن بلنسية ، كان يعلم العربية والآداب ، حسن التفهيم والتلقين ، مع المعرفة بالعروض ، وراقا محسنا ، ضابطا يتنافس فى ما يكتب ، ويغالى به[6] .

وعرفت بلنسية مدرسة متميزة فى الخط العربى ، كان لها طابعها الخاص ، ولمن يريد المزيد يمكن أن يعود إليه فى المقال الخاص به ، ونشر فى الجزء الثانى من هذه المختارات ، فى القسم الخاص بالتاريخ العربى لمدينة بلنسية[7] .

● **مكتبات مدن شرقى اسبانيا :**

وبين مدن منطقة الشرق الإسبانى من اشتهر بجمال الخط ، أو بهواية الكتب ، فقد كان **ابن خشين** ، محمد بن محمد ، من جزيرة شقر ، « يكتب المصاحف ، ولم يكن أحد من أهل زمانه يدانيه فى المعرفة بنقطها ، والبصر برسمها ، مع حسن الخط والإتقان ، وكان مع ذلك حافظا للأشعار والأخبار »[8] .

---

(١) المصدر السابق ، الترجمة ٢١١٠ ، طبعة مصر .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٦١١ ، طبعة مدريد .

(٣) المصدر السابق ، الترجمة ١٢٩٤ ، طبعة مصر .

(٤) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٥٥ .

(٥) المصدر السابق ، الترجمة ٢٠٩٨ .

(٦) المصدر السابق ، الترجمة ٨١١ .

(٧) يشير إلى المختارات من أعماله، ونشرت فى مجلدين بعنوان: «نبذ ومقالات» وعنها أترجم هذه الدراسات. « المترجم » .

(٨) التكملة ، الترجمة ١٦٤٤ ، طبعة مصر .

« ومنهم **ابن سعادة** ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، مرسى سكن شاطبة ، ودار سلفه بلنسية ، سمع **أبا على الصدفى** واختص به ، وأكثر عنه ، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق ، وأمهات كتبه الصحاح ، لصهر كان بينهما » . ورحل إلى المشرق ، وطوف بكثير من مدنه ، ولقى جلة علمائه ومنهم الإمام الغزالى ، « وقد حصل فى رحلته علوما جمة ورواية فسيحة ، وكان عارفا بالسنن والآثار ، مشاركا فى علم القرآن وتفسيره ، حافظا للفروع ، بصيرا باللغة والغريب ، ذا حظ من علم الكلام ، مائلا إلى التصوف ، مؤثرا له ، أديبا بليغا خطيبا فصيحا ، ينشىء الخطب ، مع الهدى والسمت والوقار والحلم ، جميل الشارة ، محافظا على التلاوة ، بادى الخشوع ، راتبا على الصوم ، وولى خطة الشورى بمرسية مضافا إلى خطبة الجمعة بجامعها ، وأخذ فى إسماع الحديث وتدريس الفقه ، ثم ولى القضاء بعد انقراض دولة الملثمين ، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا ، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ، ويقيم الخطب أيام الجمع فى جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبا عليها » . « وكانت عنده **أصول حسان** بخط عمه ، مع الصحيحين بخط الصدفى فى سفرين ، **ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه فى صحتها وإتقانها وجودتها** ، ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه »[1] .

ولكن عاشق الكتب الذى يحق لشاطبة أن تفخر به أكثر من غيره هو : أحمد بن محمد بن أبى الخليل ، يعرف **بالعشاب** ، **وبابن الرومية** ، « كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، وغرة جنسه ، إماما فى الحديث ، حافظا ، ناقدا ، ذاكرا تواريخ المحدثين ، وأنسابهم وموالدهم ووفاتهم ، وتعديلهم ، وتجريحهم ، عجيبة نوع الإنسان فى عصره ، وما قبله وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العشب ، وتحليتها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو مغرب ، حسا ، ومشاهدة ، وتحقيقا ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع ، إليه يسلم فى ذلك ويرجع . قام على الصنعتين ، لوجود القدر المشترك بينهما ، وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول ، وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك » .

---

(١) الضبى ، الترجمة ٣٠٨ ، والتكملة ، الترجمة ١٣٩٠ طبعة مصر ، ونفح الطيب ، جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٦٠ ، طبعة إحسان عباس .

« وكان زاهدا فى الدنيا ، مؤثرا بما فى يديه منها ، موسعا عليه فى معيشته ، **كثير الكتب ، جماعا لها ، فى كل فن من فنون العلم ، سمحا لطلبة العلم ، ربما وهب لملتمسه منها الأصل النفيس ، الذى يعز وجوده** ، احتسابا وإعانة على التعليم ، له فى ذلك أخبار منبئة عن فضله ، وكرم صنعه ، وكان كثير الشغف بالعلم ، والدؤوب على تقييده ومداومته سهر الليل من أجله ، مع استغراق أوقاته ، وحاجات الناس إليه ، إذ كان حسن العلاج فى طبه المورود ، الموضوع ، لثقته ودينه » .

« جال الأندلس ، ومغرب العدوة ، ورحل إلى المشرق ، فاستوعب المشهور من أفريقية ، ومصره ، وشامه ، وعراقه ، وحجازه ، وعاين الكثير مما ليس بالمغرب ، وعارض كثيرا فيه ، كل ما أمكنه ، بمن يشهد له بالفضل فى معرفته ، ولم يزل باحثا عن حقائقه ، كاشفا عن غوامضه ، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فردا ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن » . « وجلب كتبا غريبة » .

« كان سنيا ظاهرى المذهب ، منحيا على أهل الرأى ، شديد التعصب لأبى محمد على بن أحمد بن حزم ، على دين متين ، وصلاح تام ، وورع شديد ، انتشرت عنه تصانيف أبى محمد بن حزم ، واستنسخها ، وأظهرها ، واعتنى بها ، وأنفق عليها أموالا جمة ، حتى استوعبها جملة ، حتى لم يشذ له منها إلا مالا خطر له ، مقتدرا على ذلك بجدته ويساره »[1] .

وتميز فى مرسية كخطاط فنان **على بن ديسمة** ، وكان يتعيش من نسخ المخطوطات وبيع الكتب[2] ، **وابن حمنال** ، محمد بن عبد الرحمن ، « وكان يكتب المصاحف ، ويجيد نقطها ، ويعرف رسمها ، مع براعة الخط ، وحسن الوراقة » ، « وولى الصلاة والخطبة ببلده ، واستأدبه بعض الأكابر لبنيه ، وحدث بيسير »[2] . ويذكرون من هواة الكتب أيضا : **ابن الفرس** ، محمد بن عبد الرحيم ، من أهل غرناطة ، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس قد نزل سرقسطة ، ثم انتقل ولده إلى قرطبة ، وخرجوا منها فى الفتنة البربرية إلى إلبيرة ، ونزلوا بها . وطوف بمدن الأندلس يطلب العلم ، ورحل إلى المشرق من

---

(١) الإحاطة ، جـ ١ ص ٢١٥ ، طبعة عنان .

(٢) التكملة ، الترجمة ١٦٥٢ ، طبعة مصر .

أجل هذه الغاية ، ولقى هنا وهناك عددا كبيرا من جلة العلماء ، ثم عاد إلى بلده . « وكان عالما ، حافلا ، راوية مكثرا يتحقق بالقراءات والفقه ، ويشارك فى الأحاديث والأخبار ، مع البصر بالفتوى ووجوهها ، وضبط الروايات وتحصيلها ، والتنبيه على مواضع الخلاف وحفظها ، والاعتناء بجميع الأقاويل وإحصائها » . « وكان فى وقته أحد حفاظ الأندلس فى المسائل مع المعرفة بالآداب ، إلى حسن الضبط وجودة الخط ، **وكانت أصوله أعلاقا نفيسه، لا** نظير لها، جمع منها عددا عظيما وكتب بخطه أكثرها»[1] .

واشتهر **ابن غلبون** المرسى ، محمد بن غلبون ، « وكان ذا عناية بالرواية ، وولى حسبة السوق ببلده ، وكان من النبهاء ، **حسن التقييد والخط** مشاركا فى فنون غير الحديث » ، « وكانت له خزانة مملوءة **أصولا عتيقة ، ودفاتر أنيقة ، ضاعت لاختلاله قبل وفاته بمدة ، وبيع أكثرها وهو لا** يشعر »[2] .

● **مكتبات غرناطة :**

مع تقدم حركة الاسترداد المسيحية انكمش الساسة والعلماء فى المدن التى استولى عليها النصارى إلى المقاطعات الإسلامية ، وأصبحت غرناطة الملاذ الوحيد ، والملجأ القريب ، لكثير من العلماء واحتفظت بهذه الهواية متوهجة زمنا طويلا ، وأصبحت المكتبات وعشاق الكتب فيها أكثر عددا مما فى أية مدينة إقليمية أخرى ، فقد التقى فيها ما كان أصيلا من عمل أهلها ، أو وفد إليها مع القادمين من المهاجرين .

وإذا استطعنا أن نتوقف قليلا فى زيارتنا العاجلة لمكتبات إسبانيا الإسلامية، وفيما يتصل بموضوعى سوف يكون ذلك ثقيلا للغاية، ودخلنا مكتبة بنى الأحمر الملكية فى غرناطة، وتعرفنا إلى العلماء الذين يقومون عليها ويوجهون العمل فيها، ثم نقوم بعدها بجولة بين المكتبات الخاصة، فنرى مكتبة **ابن الزبير، أحمد** بن إبراهيم، و «كان خاتمة المحدثين، وصدر العلماء والمقرئين، نسيج وحده فى حسن التعليم ، والصبر على التسمع ، والملازمة للتدريس ، لم تختل له، مع تخطى الثمانين ، حاسة ، ولا لحقته سآمة ، كثير الخشوع والخشية ، مسترسل العبرة ، صليبا فى الحق ، شديدا على أهل البدع ، ملازما للسنة ، جزلا مهيبا ،

(١) المصدر السابق ، الترجمة ١٣٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ١٦٩٠ .

معظما عند الخاصة والعامة ، عذب الفكاهة ، طيب المجالسة ، حلو النادرة ، يؤثر عنه فى ذلك حكايات ، لا تخل بوقار ، ولا بجلال منصب » .

ونشأت بينه وبين المتغلب بمالقة من الرؤساء التجيبيين من **بنى اشقيلولة** وحشة ، أكدتها سعاية بعض من استهواهم رجل ممخرق من المشعوذين ، ومنتحلى الكرامة ، فتعقبوا ابن الزبير ، فترك مالقة إلى غرناطة ، فكبسوا منزله لحينه ، واستولوا **على ذخائر كتبه ، وفوائد تقييده عن شيوخه** ، مما طالت له الحسرة ، وجلت فيه الرزية ، ولكن سلطان غرناطة أبا عبد الله بن نصر ، عرف حقه ، وأكرم مثواه ، ورد مكتبته ثانية ، وتوفى بغرناطة ، « وكانت جنازته بالغة أقصى مبالغ الاحتفال ، نفر لها الناس من كل أوب ، واحتمل طلبة العلم نعشه على رؤوسهم إلى جدثه ، وتبعه ثناء جميل ، وجزع كبير »[1] .

وكان **ابن فركون** ، أحمد بن سليمان « شعلة من شعل الذكاء والإدراك ... نظم الشعر ، **وقيد كثيرا وسبق أهل زمانه فى حسن الخط ، سبقا أفرده بالغاية القصوى ، فيراعه اليوم المشار إليه** باللطف والإتقان » .

وكان **الطراز** ، محمد بن سعيد ، « مقرئا جليلا ، ومحدثا حافلا ، به ختم بالمغرب هذا الباب البتة ، وكان ضابطا متقنا ، ومقيدا حافلا ، بارع الخط ، حسن الوراقة ، عارفا بالأسانيد والطرق والرجال وطبقاتهم ، ماهرا فى صناعة التجويد ، مشاركا فى علم العربية والفقه والأصول ، وغير ذلك . كاتبا نبيلا ، ثقة فيما روى ، عدلا ممن يرجع إليه فيما قيد وضبط ، لإتقانه وحذقه . كتب بخطه كثيرا ، وترك أمهات حديثية اعتمدها الناس بعده ، وعولوا عليها ، وتجرد آخر عمره إلى كتاب « مشارق الأنوار » تأليف **القاضى عياض** ، وكان قد تركه فى مبيضة ، فى أنهى درجات النسخ والإدماج والإشكال ، وإهمال الحروف حتى اخترمت منفعتها ، فتولى أمره ، وأصلح حاله « حتى استوفى ما نقل منه المؤلف ، وجمع عليها أصولا حافلة ، وأمهات جامعة ، من الأغربة وكتب اللغة ، فتخلص الكتاب على أتم وجه وأحسنه ، وكمل من غير أن يسقط منه حرف ولا كلمة ، والكتاب فى ذاته لم يؤلف مثله »[2] .

واشتهر **ابن لب**[3] ، محمد بن محمد ، من أهل مالقة و « كان ذاكرا للعلوم القديمة ، معتنيا بها ، عاكفا عليها متقدما فى علمها على أهل وقته ، لم يكن يشاركه أحد فى

---

(١) الاحاطة ، جـ ١ ص ٩٥ ٢٠٠ ، طبعة عنان .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٤١ ٤٢ .

(٣) كلمة لب إسبانية وهى Lubo أو Lopo ومعناها ذئب .

معرفتها ، من الرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، ذاكرا لمذاهب القدماء ، ومآخذهم فى ذلك . حافظا جدا ، ذاكرا لمذاهب المتكلمين من الأشعرية وغيرهم » . « وكان له أدب فى التطواف وخصوصا بأرض النصارى ، يتكلم مع الأساقفة فى الدين فيظهر عليهم » ، « ووصى قبل موته بوصايا من ماله ، فى صدقات وأشباهها ، **وحبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة**[1] .

ولمعرفة القدر الذى بلغته الهواية فى غرناطة ليس علينا إلا أن نقترب من **شارع الورّاقين** . لنرى كيف أن الموثقين والفقهاء تخلوا عن مهنهم تلك ، وهى قليلة العائد ، متواضعة البريق ، واندمجوا فى مهنة بيع الكتب ، وتدر عليهم ربحا لا بأس به ، ويكفى دخلها خلال أعوام قليلة لكى ينسحبوا إلى حياة هنية ، خالية من الحرص والهموم .

سوف نلتقى مع **ابن شقرال** ، محمد بن أحمد ، ويعرف بالطرسونى ، وكان « قيما على النحو والقراءات واللغة ، مجيدا فى ذلك ، محكما لما يأخذ فيه منه ، وكانت لديه مشاركة فى الأصلين والمنطق ، طمح إليها بفضل نباهته وذكائه ، وشعوره بمراتب العلوم ، دون شيخ أرشده إلى ذلك ، يجمع إلى ما ذكر **خطا بارعا** ، وظرفا وفكاهة ، وسخاء نفس ، وجميل مشاركة لأصحابه ، بأقصى ما يستطيع ، **وكان صناع اليدين ، يرسم بالذهب** ، ويسفر ، ويحكم عمل التراكيب **الطبية** » ، **وتقلد خزانة الكتب السلطانية بالحمراء مدة ، ثم فسد** ما بينه وبين الوزير فعزل عنها ، وأجلى إلى أفريقية[2] .

وتعيش **ابن سارة** الشاعر الشنترينى ، عبد الله بن محمد ، **بالوراقة زمانا ، وكان حسن الخط ، جيد النقل والضبط** ، ذا حظ صالح من النحو واللغة ، وحفظ الأشعار ، أديبًا ماهرًا ، شاعرًا مجيدًا ، مطبوع الاختراع والتوليد ، تجول فى شرق الأندلس وغربها ، معلما للنحو ، ومادحا ولاتها ، وكتب عن بعضهم[3] . **وكان ابن بيش**[4] ، محمد بن محمد ، « خيرا منقبضا ، عفا متصاونا ، مشتغلا بما يعنيه ، مضطلعا بالعربية ، عاكفا عمره على تحقيق اللغة ، مشاركا فى الطب ، **متعيشا من التجارة فى الكتب ، أثرى منها ، وحسنت حاله**[5] .

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٧٩ – ٨١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٣ – ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٤٣٩ – ٤٤١ .

(٤) أصل الكلمة إسبانى Vives « المترجم »

(٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ٢٧ .

واشتهر **ابن العابد** الأنصارى ، محمد بن محمد ، بالكتابة ، وكان « بليغا ذا معرفة ، بارع الخط ، أوحد زمانه فى ذلك ، مهذب اللفظ ، منحطا فى هوى نفسه ، محارفا بحرفة الأدب على جلالة قدره ، وكتابته نقية ، جانحة إلى الاختصار » . وآثره **ابن الجياب** كبير كتاب الدولة النصرية ، وشيخ **لسان الدين** بن الخطيب ، بكتبه ، وكانت نفيسة ، أعلاها بخط أبيه رحمه الله .

● الكتب بين الموريسكيين :

وانتهت حرب الاسترداد المسيحية ، وبقى الموريسكيون بيننا ، وحافظوا على حبهم للمخطوطات ، ولكن بأعداد بسيطة ، بقدر ما سمحت لهم ظروفهم التى عاشوا فيها ، لقد عارض شعبنا بقوة عنيفة انتشار تعاليم الإسلام بين مواطنينا الذين كانوا يتخذون الإسلام دينا ، واعتبرت أوامر التحريم المتعددة امتلاك الكتاب بينهم خطيئة فأخفى الموريسكيون حبهم لها ، ثم بدأ ينكمش مع الزمن ، إلى أن اختفى بطردهم كلهم من اسبانيا نهائيا عام ١٦١٣ م .

● أسباب قلة الكتب العربية فى إسبانيا :

هذه الأرقام الهائلة من الكتب ، والعديد من المكتبات ، كيف انتهى بها الحال ؟ ألا تشير قلة المخطوطات العربية بيننا الآن إلى أن هذه المعلومات داخلتها الأساطير ، أو فيها شىء من الخيال ؟ .

الحق أن نفس السبب الذى أدى إلى تضاعف المخطوطات المدهش بين المسلمين كان وراء اختفائها السريع أيضا . ذلك أن الورق الصناعى الذى كانت تنتجه المصانع الإسبانية سميك أو جاف ، ومصقول ، يبدو شكلا أنه يقاوم الزمن ، ولكن إذا قارناه بالرق وجدناه سريع التلاشى ورخوا ، كما لو كان مشاقة كتان تتلاشى أمام هجوم الرطوبة عليها ، وفى الوقت نفسه صالح جدا ليكون طعما للفيران والعثة ، ومادة مهيأة للنيران ، ولا يقاوم الاستعمال المستمر لمدى طويل ، فهو يتمزق بسهولة ، أى أن الاستخدام يأتى على الكتاب سريعا ، ويجعل الكتب غير صالحة للدراسة ، ومن ثم تستخدم بقاياها فى مهن أخرى . وأضيف إلى هذا حرص المهاجرين على أن يحملوا كتبهم معهم ، أو إخراجها قبل أن يرحلوا ، وإهمال الأيدى غير المثقفة ، وأسباب أخرى كثيرة . وكان هناك تيار متدفق من أسباب ضياعها ، حدث ببطء ، وفى صمت ، ودون ضجيج أو صخب مما يصحب الحوادث الكبرى التى تملأ التاريخ .

ثمة كتب كثيرة ضاعت بفعل الجوائح المؤسفة ، مثلا : حدث **لعبد** الرحمن بن موسى الهوارى ، من أهل أستجة ، وهو عائد إلى الأندلس بعد رحلة فى المشرق **أن عطب بشواطئ الأندلس الشرقية الجنوبية** ، أو يبحر تدمير على حد تعبير القدامى ، **فذهبت كتبه** ، ولما قدم أستجة أتاه أهلها يهنئونه بقدومه ، **ويعزونه عن ذهاب كتبه** ، فقال لهم : ذهب الخرج ، وبقى الدرج ، يعنى : ما فى صدره[1] . والشىء نفسه **وقع لأفلح** مولى عبد الرحمن الناصر ، **فقد ذهبت كتبه فى البحر** ، وهو فى طريق عودته إلى الأندلس[2] .

وكان **ابن حوط الله** الأنصارى ، عبد الله بن سليمان ، من أهل « أنده » بلنسية ، دنيا من العلم ، جال فى بلاد الأندلس ، وبها يومئذ بقية من الرواة ، وجلة من المحدثين والنحاة ، يأخذ القراءات من المقرئين ، ويروى الحديث عن المسندين ، وكاتب أعيان المشرقيين وأعلامهم ، « وكان أماما فى صناعة الحديث ، مقيدا ضابطا ، بصيرا بها ، معروفا بالإتقان لها ، **حسن الخط** ، حافظا لأسماء الرجال ، واقفا على المعدلين والمجرحين ، يجمع إلى الاحتفال فى الرواية ، حسن الاستقلال بالدراية » . « وتصرف فى الخطط النبيهة فولى فى أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا ، وغيرها من حواضر البلاد بالأندلس والعدوة » ، **وامتحن بالتجول فذهبت أصوله ، وضاعت كتبه فى بعض أسفاره** ، ولو فرغ للتأليف والتصنيف لعظم الانتفاع بمعلوماته بعده »[3] .

وطاف عطية بن سعيد « بلاد المشرق سياحة ، وانتظمها سماعا ، وبلغ إلى ما وراء النهر ، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها مدة ، وكان يتقلد مذهب الصوفية والتوكل ، ويقول بالإيثار ولا يمسك شيئا » . « وكان قد **جمع كتبا حملها على بخاتى**[4] **كثيرة** » وعاد إلى الأندلس دون أن يحمل شيئا مما جمع هناك ، وعاش حياة كلها زهد وعزوف عن الدنيا[5] .

وكان **الحميدى** ، أبو عبد الله محمد بن فتوح ، إماما من أئمة المسلمين فى حفظه ومعرفته ، وإتقانه وثقته ، ونبله وديانته ، ودعته ، ونزاهته ، إماما فى علم الحديث وعلله ،

---

(١) ابن القرضى ، الترجمة ٧٧٨ ، طبعة الدار المصرية .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة ٢٦٢ .

(٣) التكملة ، الترجمة ٢٠٩٩ ، طبعة القاهرة .

(٤) البخاتى : الإبل الخرسانية .

(٥) الضبى ، الترجمة ١٢٦٠ ، ابن بشكوال ، الترجمة ٩٦٣ .

ومعرفة متونه ورواته ، محققا فى علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث ، متبحرا فى علم الأدب والعربية ، وصنف كتبا كثيرا ، وصلنا منها « جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس » ، وألفه فى بغداد ، وكتبا أخرى كثيرة . « وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل فى الحر ويجلس فى إجانة ماء يتبرد به » وقد توفى فى بغداد ، « ووقف كتبه على أهل العلم » فيها[1] .

ورحل **محمد بن على بن ياسر** إلى المشرق ، وطوف بكثير من مدنه ، « ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها ، وسلمت إليه خزانة الكتب النورية وأجريت عليه جراية ، وكان فيه عسر فى الرواية والإعارة معا ، ووقف كتبه على أصحاب الحديث »[2] . وذهب نجل الدين بن هلال إلى المشرق ، وهناك وهب كتبه لصديقه الأشرف المرسى[3] .

وثمة أعداد كبيرة لا تحصى من علماء إسبانيا الإسلامية اضطرتهم حرب الاسترداد المسيحية إلى الهجرة إلى المشرق ، ومن ثم لا يدهشنا أن تقوم المطابع فى المشرق الآن بنشر أشهر ما ألف العلماء الإسبان من كتب ، فى مجال التصوف والزهد مثل كتب **ابن عربى** ، أو فى النحو مثل كتب **ابن مالك** ، أو فى السياسة مثل كتاب **أبى بكر الطرطوشى** ، أو فى القراءات مثل كتاب **الشاطبى ابن فيره** ، أو فى الشعر كديوان **ابن خفاجة** ، أو **قلائد العقيان للفتح ابن خاقان** ، وغيرهم .

وقد استقر فى شمال أفريقيا ، وفى المغرب منه بخاصة ، كثير من الكتب الإسبانية ، على امتداد عصور عديدة ، وبعد وفاة **المنصور** بن أبى عامر ، وابنه عبد الملك المظفر ، هرب كثير من العلماء الإسبان المسلمين نجاة بأنفسهم من أهوال فتنة البربر ، ونزل أكثرهم مدينة **فاس** ، فهى اليوم على غاية الحضارة[4] . وجاء إلى إسبانيا طلاب من المغرب ، كى يكملوا دراستهم بها ، وعند عودتهم إلى بلادهم حملوا معهم مجاميع من الكتب القيمة ، فقد قدم **يصلتن** بن داود الأغماتى إلى قرطبة طالبا ، **وجمع كتبا عظيمة** ، وخرج منصرفا إلى بلده[5] . وصنع مثله **ابن عبد الحق التلمسانى**[6] . « وكان قد جمع

(١) نفح الطيب ، جـ ٢ ص ١١٣ – ١١٤ ، طبعة احسان عباس .
(٢) التكملة ، الترجمة ١٣٨٠ ، طبعة مصر .
(٣) النفح ، جـ ١ ص ٨٩١ ، طبعة أوربا .
(٤) المعجب ، ص ٣٥٨ ، طبعة العريان .
(٥) ابن الفرضى ، الترجمة ١٦٤٩ ، طبعة الدار المصرية .
(٦) التكملة ، الترجمة ٢١٣٧ ، طبعة مدريد .

كتبا حملها على بخاتى كثيرة » وعاد إلى الأندلس دون عائلة **ومكتبة عائلة ابن ملحم** المغربى الشهيرة ، ذات المخطوطات القيمة النادرة ، وهى أصلا من شرقى الأندلس ، ويمكن أن يقال أنهم كونوها فى أسبانيا[1] .

كما أن بعض النساخين والوراقين هاجروا إلى المغرب واستقروا فيه ، ومن هؤلاء **الغافقى** من قرمونة ، وكان وراقا[2] ، وآخر من شمينة **jimena** ، وكان يبيع ما ينسخ بأسعار غالية[3] ، **ويعد ابن رشيد** من هواة الكتب الملحوظين ، وعاش فى غرناطة ، وتوفى فى فاس ، ولا تزال مكتبة الإسكوريال تحتفظ ببعض مخطوطاته[4] .

● ظاهرة إحراق الكتب :

ومع ذلك بقيت فى كتب التاريخ إشارات أخرى كافية تفسر لنا اختفاء آلاف وآلاف المخطوطات العربية ، وأود أن أشير إلى الحرائق المقصودة ، وكانت تتم بمرأى من الجماهير ، أو أحرقتها الجماهير نفسها ، وسط ابتهاجات صاخبة .

وقد عرفت إسبانيا المسيحية ، لقرون عديدة ، حفلات بالغة البهجة ، ذات طابع شعبى للغاية ، تحتفل فيها بإحراق المخطوطات العربية ، وأمم قليلة فى العالم استمتعت بهذه البهجة مرات عديدة كما حدث فى إسبانيا ، والجميع من أهلها يتباهون بها ، مسلمين ومسيحيين ، غير أن ما كان يحدث لم يكن احتقارا للعلم ، ولا كراهية فى التعليم ، والعكس صحيح ، كان وليد الحماسة المفرطة ، أو الحب الزائد للمثل العليا ، وهى إحدى خصائص القومية الإسبانية الذاتية ، لأن الشعوب المتخلفة لا تقدر قيمة الكتاب كما يجب ، فهم لا يكتبونها ولا يحرقونها ، وفى بلد كوطننا أدرك الناس سريعا ما تحمله الكتب فى أعماقها من خمائر ، والدور الذى تلعبه فى نشر الأفكار ، فلجأوا إلى الحرائق كى يحولوا دون انتشار الآراء المنحرفة ، التى تناهض عقائد الأغلبية وتراها صحيحة ، وتود المحافظة عليها .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٦٥٢ ، ١٩٣٠ ، طبعة مدريد ، والجذوة ، الصفحات ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، طبعة مدريد .

(٢) الجذوة ، ص ٢٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٤) الإحاطة ، المجلد ٣ ، الورقة ١٥ .

والظاهرة غريبة ، ولهذا سوف أقدم لها موجزا سريعا ، لكى يتم تقييمها فى نطاق المناخ الذى كانت تجرى فيه .

فى البدء عند استيلاء المسلمين على إسبانيا ، لم يكن التعليم منتشرا بين المسلمين على نحو واسع ، فلم يرد فى خاطرهم ما يمكن أن ينطوى عليه الكتاب من خطر ، ولكن عندما تأصل المذهب المالكى فى إسبانيا بقوة كافية ، يستطيع معها أن يقاوم غزو المذاهب الشرقية الأخرى ، بدأت فى إسبانيا الإسلامية مشاهد إحراق الكتب . وقام بها الشعب أولا بتأثير من الفقهاء أنفسهم ، وكان يطبق العدالة بنفسه ، ويقتص بيديه سبا وشتما ممن تومئ إليهم الإشاعة الشعبية ، وتتهمهم بأنهم أدخلوا أفكارا جديدة خطرة ، فإذا لم يتراجع عنها من اتهم بها تجمعوا ضده ، واقتحموا داره ، وأحرقوا كتبه ، وهو ما حدث مع الفيلسوف **ابن مسرة** ، وفيما بعد مع **ابن كليب** عند وفاته ، واتهم بأنه جاء من المشرق بأفكار فلسفية مشرقية تتصل بحرية الاختيار ، وتناهض الاتجاه القدرى السنى ، وفى هذه المرة كان الفقهاء هم الذين شكلوا لجنة ، ودخلوا داره ، وأخرجوا كتبه إلى الشارع ، وأحرقوا منها كل ما لا ينتمى إلى المذهب المالكى[1] .

ولم تكن محكمة التفتيش هذه رسمية ، وتتصرف دون أن يحكمها قانون أو تضبط صورة عملها لائحة ، وأزعجت الحكومة فى كثير من الأحيان لمبالغتها ، وتدخلها فى قضايا ترى الدولة أن تتبع إزاءها الطرق القانونية العادية المتبعة فى الاتهام والمحاكمة ، أمام الهيئات القضائية العادية . وقد اهتز الأمويون بقوة ، وفى مناسبات كثيرة ، أمام هذه المواقف ، وأعطوا أمثلة واضحة على مزيد من التسامح ، كما حدث فى أيام الحكم الثانى ، ولكنهم لم يجرأوا على المقاومة دائما ، ووجدوا أنفسهم مضطرين أحيانا لإبعاد أشخاص أو نفيهم ، وما كان بوسع هؤلاء أن يعيشوا بين عامة الناس لولا تدخل الأمراء .

الغيرة الشعبية إذن كانت السبب وراء عمليات الإحراق واضطهاد الكتاب ، ودليلنا على أنها لم تكن تصدر عن رغبة الحاكمين ، أو القائمين على شئون الدولة ، يتجلى واضحا فيما حدث أيام **المنصور** بن أبى عامر ، فقد كان فردا يهوى كتب الفلسفة وألوانا أخرى من المعرفة الإنسانية لا يرتضيها الفقهاء ولا عامة الناس ، واحتفظ بالمجلدات موضع الشبهة

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٤١٨ ، طبعة مدريد .

فى مكتبته ، غير أنه كرئيس دولة أقام « محكمة تفتيش » من العلماء ، كى يدخل البهجة على نفوس رعاياه ، والذين ألمحوا عن رغبتهم فى تطهير مكتبة **الحكم الثانى** ، وأشار صوت الرأى العام إليها كمكان يضم كثيرا من كتب الزندقة والمؤلفات الضارة ، ولم تشفع لها هيبة سيدها ، ولا شهرتها ، ولا أنقذها أنها مكتبة والد الخليفة القائم على رأس الدولة ، وذهبت إليها « المحكمة » ، وأخرجت الكتب المشبوهة إلى ساحة القصر ، وبدأت تشعل فيها النيران ، والتهمت الحرائق أكواما كبيرة من المخطوطات بمشهد من المنصور نفسه ، وكان يساعد فى تقديمها للهب بيديه نفسهما، وأتت النيران على كتب الفلسفة والفلك الرفيع ، والجدل العقائدى ، وغيرها مما اعتبروه ضارا ، وأبقوا على كتب الطب والرياضيات ، ومبادئ الفلك ، والفقه فحسب ، ومواد أخرى بريئة من الشبهات[1] .

ومع ذلك ، لم يكن سهلا استئصال أربع مئة ألف مجلد فى زمن وجيز ، ولا إمكان فحصها على نحو دقيق ، وظلت كتب كثيرة كان يجب أن تلقى إلى النار ، طبقا لرأى الفقهاء الضيق والمسيطر ، بمنجاة من هذه المحنة ، وبرهنت عليه الحوادث فيما بعد ، خلال الأيام التعسة من فتنة البربر ، وأغرقت قرطبة النبيلة فى طوفان من الحزن والشقاء ، فقد اقتحم البربر المدينة ، وحاصروا قصر الخلافة ، وسرق الجنود القذرين من الأفارقة ، وجاء بهم المنصور لكى يكون منهم جيش الخليفة ، ما استطاعوا من هذه الكتب ، وباعوه بثمن بخس ، فلما سكنت الثورة وجدت أعداد كثيرة من كتب المكتبة متفرقة ، مخبأة تحت الأنقاض ، أو فى الغرف السفلى ، أو بين القنوات الجافة . ويروى **ابن سعيد** أن الجانب الأكبر من ذخائر الأدب التى كانت تضمها مكتبة **الحكم الثانى** تناثرت فى مدن الأندلس ، انتهت عند أناس من إشبيلية ، أو قرطبة ، أو المرية ، ومدن أخرى غيرها ، وقد رأيت أنا بنفسى (الضمير يعود على ابن سعيد) بعض هذه الكتب فى مدينة طليطلة ، أفلتت من الدمار أيام **المنصور** ، ومحتواها بومئ ، فيما يبدو ، إلى أنها من الكتب التى كان يجب أن تحرق[2] .

وعندما تهاوت الخلافة الإسلامية وتناثرت فى دويلات صغيرة عرفت باسم دول الطوائف ، وحكم كل دولة منها أمير تختلف ميوله عن الآخرين ، أمكن القول حينئذ أن عصرهم بعامة من أوسع العصور حرية ، وممارسة لها ، وزلزلزل طابعها أعماق رجال

---

(١) ابن عذارى ، جـ ٢ ص ٣١٥ .

(٢) جيانجوس ، الترجمة الانجليزية لنفح الطيب ، ص١٢ ، ٩٠ .

الفقه الإسلامى ، وكان بعض أمراء الطوائف لا يقيمون لهم وزنا ، وقد تجرأت « محكمة التفتيش » فى مدينة أندلسية وحيدة ، وهى إشبيلية ، على تفتيش الحوانيت والأسواق بحثا عن كتب مشبوهة ، لكى تحرق علنا فى ميدان عام على مرأى من العامة ، وكانت هذه تحتفل بمثل هذا الأمر فى ابتهاج .

وكان ذلك ما حدث لكتب ابن حزم العظيم ، ولشد ما كرهه الفقهاء فى وقته ، « فتألبوا على بغضه ، ورد قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه ، والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى أن انتهوا به منقطع أثره ، بتربة بلده من لبلة ، وبها توفى غير راجع إلى ما أرادوا ، به يبث علمه فيمن ينتابه ببادیته من عامة المقتبسين منه من أصاغر الطلبة ، الذين لا يحسون فيه الملامة بحداثتهم ، ويفقههم ويدرسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته فى فنون العلم وقر بعير ، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ، وفى ذلك يقول :

فإن تحرقوا القرطاسَ لا تحرقوا ... الذى تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى ... وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى[1]

● الكتب فى عهد المرابطين :

وبوصول المرابطين إلى الأندلس أخذ رد الفعل عند الفقهاء دفعة جديدة ، فازداد نشاطهم وقوى ، وأثارتهم المشاهد التى تحدث من بعض صغار أمراء الطوائف ومن العامة ، وتتسم بعدم احترام المظهر الدينى ، وانعدام الحماسة والغيرة عند القيام بالواجبات التى أمر بها القرآن الكريم ، وبتأثير منهم وجه الأمير المرابطى قرارا إلى جميع أنحاء إسبانيا يأمر فيه بإحراق كتب الفلسفة التى فى حوزة الأفراد ، وحتى كتب الجدل فى العقائد ، وكانت هذه الأوامر فى نهاية التطرف ، وأدت إلى موجة احتجاج عنيفة بين الفقهاء أنفسهم ، غير أن هذه الأصوات كانت مفردة ، ومنعزلة ، ولم تؤد إلى نتيجة ، ووجد الحكام الذين مالوا إلى التسامح أنفسهم معزولين عن وظائفهم ، فأخذت البقية فى تنفيذ قرار الأمير فى شدة وبدقة .

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ ٤ ص ١١٥ – ١١٦ ، طبعة عنان .

ولكن ذلك لا ينفى أن بعض الشخصيات الأفريقية ، من عمال المرابطين ، والذين تولوا الوظائف الكبرى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، كانوا من عشاق الكتب الممتازين ، مثل : **المنصور** بن محمد الصنهاجى ، وكان واليا على بلنسية و« من رؤساء لمتونة وأمرائهم ، موصوفا بالذكاء والفهم ، عارفا بالأخبار والسنن والآثار ، يصحب العلماء للسماع منهم ، **وينافس فى الدواوين والأصول العتيقة ، وجمع من ذلك ما لم** يجمعه أحد من أهل زمانة »[1] .

ولكن حكم **المرابطين** لم يشجع الكتب الإسبانية كثيرا ، فقد أحرق كتب **الغزالى**[2] ، ونهب بعض المكتبات الخاصة ، مثل مكتبة **أبى بكر** بن أبى ليلة المرسى[3] ، ولم يتوقف **على** بن يوسف بن تاشفين عن جمع الكتب من كل مقاطعات إسبانيا ليكون منها مكتبة خاصة له ، فجمع منها قدرا عظيما ، ولم يحز أحد مثلها قبله بالمغرب[4] .

● **الموحدون والكتاب :**

وفيما بعد استولى **الموحدون** على الغرب الإسلامى كله ، وكانوا أنصارا متحمسين [لمذهب الأشعرية فى أكثر المسائل ، ووافقوا المعتزلة فى مسائل قليلة] ، ومن ثم كانوا أصدقاء للفلسفة ، وعندما وصلوا إسبانيا ثأروا للإهانات السابقة ، وأمروا بإحراق كل كتب المذهب المالكى ، وهو المذهب الرسمى الوحيد فى إسبانيا الإسلامية إذ ذاك ، وأخذوا يجمعون كتبه ، ويحملونها إلى الجانب الآخر من العدوة فى قوافل تنقل أحمالا من الكتب لا تعد إلى مدينة **فاس** ، حيث أحرقت علنا ، وكان هذا هجوما خطيرا على المذهب السنى القومى الإسبانى ، وسرت الإشاعات بين العامة بأن أمراء الموحدين زنادقة ، ولكى يواجه الموحدون الإشاعة بما يقضى عليها بدأوا يضطهدون كتب الفلسفة ، ونجد فى هذا تعليلا لموقفهم من **ابن رشد وابن طفيل** ، فقد حظى هذان عندهم بالمناصب والعطايا ، وأهديا مؤلفاتهم لأمراء الموحدين ، غير أنهما ما لبثا أن عانيا من الملاحقة والاضطهاد ، وندرت كتبهم ، وأصبح العثور على نسخة منها عسيرا ، ومن يدرى ربما ضاعت تماما لو لم يقدر لها أن تترجم إلى اللاتينية والعبرية ، وهى تراجم قام بها اليهود ، وكانوا قد نفوا من إسبانيا أيضا ، كما حدث للفيلسوف الشهير **موسى بن ميمون** .

---

(١) التكملة ، الترجمة ١٨٠٨ ، طبع مصر . والمعجم لابن الأبار ، الترجمة ١٧٣ ، طبع دار المصرية .

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٣ .

(٣) التكملة ، الترجمة ١٦٠٣ ، طبع مدريد .

(٤) المعجب ، ص ١٧١ – ١٧٣ .

غير أن **الموحدين** كانوا من هواة الكتب أيضا ، واستخدموا نساخين وخطاطين من الإسبان ، وأحد هؤلاء **أبو العباس بن الصغير** ، من أهل المرية ، وأقام أبوه فى بلنسية ، وجده من سرقسطة ، وكانت الكتب التى ينسخها لا تقدر لروعتها بثمن ، وعينه السلطان **أبو يعقوب المنصور** خازنا لمكتبته[1] .

وكان الأمير أحيانا يلجأ إلى العنف والقوة، وحتى إلى السرقة فى الاستيلاء على المكتبات ، [فقد كان **أبو الحجاج المرانى** من إشبيلية يملك مكتبة غنية، وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس، وكان يتردد عليها **أبومحمد بن عبدالملك الشذونى**، أحد المتحققين بعلمى الطب وأحكام النجوم، يستعير منها مايريد فى غرائر لكثرتها ، يجئ بغرارة ويحمل أخرى ، ولكنه فى بعض الأيام عدم تلك الكتب جملة ، فسأل صاحبها ، فأسر إليه : لقد علم بأمرها أمير المؤمنين **أبو يعقوب** ، فأرسل إلى دارى ، وأنا فى الديوان لا علم عندى بذلك ، **كافورا الخصى** مع جماعة من العبيد الخاصة ، وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده والذين معه أشد الوعيد أن نقص أهل البيت إبرة فما فوقها .

« فأخبرت بذلك وأنا فى الديوان فظننته يريد استصفاء أموالى ، فركبت وما معى عقلى ، حتى أتيت منزلى فإذا الخصى كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج إليه ، فلما رآنى وتبين ذعرى قال لى : لا بأس عليك ! ، وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم على ، وأنه ذكرنى بخير ، ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى ، ثم قال لى : سل أهل بيتك هل راعهم أحد ، أو نقصهم شىء من متاعهم ، فسألتهم فقالوا : لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شىء ، جاء أبو المسك حتى استأذن علينا ثلاث مرات ، فأخلينا له الطريق ، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب ، فأمر بإخراجها ، فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى من الروع . وولوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه »] [2] .

وقد ألقى تعصب هؤلاء الأفارقة بكاهله على كتب الفقه المالكى ، فأمروا بإحراقها ، ثم تقدموا إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وتوعدوا على ذلك بالعقوبة الشديدة[3] .

---

(١) الاحاطة ، المجلد ١ الورقة ٣٢؛ مخطوطة الجمع التاريخى بمدريد .

(٢) المعجب، ص ٢٣٨–٢٣٩. وقد أشار المؤلف إلى القصة، وأحلنا على المرجع ، وأتيت بها كاملة . « المترجم » .

(٣) التكملة، الترجمة ٨٧٠، طبعة مدريد والمعجب، ص٢٧٨. وبعض المجموعات الإسبانية أحرقت فى أمكنة أخرى من شمال أفريقية ، فكتب ابن الأبار المؤرخ أحرقت فى تونس فى ميدان عام . المقرى جـ١ ص٨٦٧ طبعة مدريد .

هذا الاختلاف فى الآراء بين الحاكمين أتى على القدر الهائل من الكتب الذى جمعه عشاقها من الإسبان فى حمية وحماسة ، وجفف ينابيعه ، وكانت تتجدد قليلا ، وأحيانا ، فى عصور السلام والحرية النسبية ، أما الكتب التى نجت من الحرائق ، واحتفظ بها المسيحيون والموريسكيون واليهود ، فقد أضعناها نحن الإسبان ، أحيانا باهدائها ، كما حدث فى عهد **سانتشو** Sancho الرابع ، **فقد وعد بنى مرين بأن** يقدم لهم الكتب العربية الموجودة فى مملكته ، وفى مناسبة واحدة فحسب أمر بارسال ثلاثة عشر حملا . وأحيانا كنا نحرقها ، ولم نجد فى ذلك من الحرج أكثر مما وجد المسلمون أنفسهم ، وفى هذا الجانب لم نصنع أكثر من أننا اتخذنا منهم القدوة والمثل[1] .

● حريق غرناطة أبشع الحرائق وأفظعها :

ولكن أشهر هذه الحرائق على الإطلاق ، وبه بدأت إسبانيا المسيحية حملة التدمير تمت فى **ميدان باب الرملة** فى مدينة **غرناطة** ، بأمر من **الكاردينال ثيسنيروس** ، وفيها التهمت النيران آلاف من المخطوطات العربية القيمة ، ذات الخطوط الجميلة ، والتجليد الفنى ، ويقول **الأب الكولية** Alcoleaإن الكثير منها كان يضم فى جوانبه أركانا من الفضة والذهب ، وقدرا غير قليل من الماس ، وقدرت هذه بما لا يقل عن عشرة آلاف دكادو ducado . وأبدى بعض المشاهدين رغبتهم فى الحال ، خلال عملية الحريق نفسها ، فى شرائها .

ولم يكن هذا الحريق غير مجرد « نقل » لفتح الشهية ، وأصبح من المعتاد فيما بعد أن يتم إحراق الكتب بأمر من الملكه **دونيا خوانا** ، ففى عام ١٥١١م أمرت الموريسكيين بأن يقدموا إلى المسئولين كل ما فى حوزتهم من الكتب العربية لفحصها ، على أن ترد لهم كتب الفلسفة ، ولم يكونوا أنفسهم راغبين فيها ، إذا لم يكونوا قد أحرقوها بأنفسهم ، وكذلك ترد لهم كتب الطب والتاريخ ، ولم يكن عندهم الكثير من هذا ، على أن تحرق كتب الفقه والتشريع ، وكانت أكثر ما يملكون .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت « محاكم التفتيش » الإسبانية مختصة بالفصل فى التبليغ عن الكتب العربية ، وتقوم هى بإحراقها ، وعقاب من توجد فى حوزته وأصحابها ،

---

(١) عندما أشار صاحب روض القرطاس إلى هذه الرسالة ، قدم لنا بعض المعلومات عن المخطوطات الهامة التى كانت فيها . انظر : الترجمة الفرنسية لروض القرطاس ، ص٥٢٥ — وابن خلدون ، الترجمة الفرنسية ، جـ٧ ص ٢١٠ .

ولكن الموريسكيين أخفوا ، حتى ذلك الوقت ، قدرا لا بأس به ، أنقذوه من لهب النيران ، وطبقا لما يقوله الراهب **ماركوس الحجارى** ، إنه لوحظ عند طردهم النهائى من إسبانيا أن بيوت المطرودين فيها كثير من كتب الدين الإسلامى ، والمصاحف المزخرفة بالألوان الحمراء والزرقاء ، والرسوم البديعة ، وأن ذلك شيء طبيعى فى حياتهم وعاداتهم ، وبدا للمسيحيين القدامى[1] أنه دليل واضح على حنثهم وضررهم ، واعتبروها شيئا ضارا ، ليس بأقل أذى من كتب السحر والرقى والشعوذة .

وفى أغسطس من عام ١٥٨٤ كان قائد منطقة ألتية Altea عائدا إلى القلعة ، فاصطدم فى طريقة بموريسكى يحمل جوالا من المصاحف ، مكتوبة بحروف مذهبة وحمراء ، وأنها تخص ، طبقا لاعترافه ، عمه المسمى **شنقر** Juncar ، وهو فقيه تلك الضيعة ، فتم اعتقاله وقدم إلى محكمة التفتيش[2] .

وازدادت حمية محاكم التفتيش عندنا ، وتجاوزت الحد ، ومع ذلك حاولت منظمات أخرى أن تسبقها ، وحدث فى القرن السابع عشر الميلادى أن بدأت مفاوضات سياسية بين ملوك إسبانيا وسلاطين المغرب ، وكان هؤلاء يعرفون أن **فى الإسكوريال** مكتبة عظيمة قوامها المخطوطات العربية ، وأنها جاءت فى معظمها من استيلاء الأسطول الإسبانى على بعض السفن المغربية التى كانت تحمل مكتبة **السلطان زيدان** ، فحاول المفاوضون المغاربة أن يسترجعوا هذه الكتب ، وبلغ الأمر حد استشارة الرئيس العام لمحاكم التفتيش ، فأمر بعدم رد المخطوطات المتصلة بالدين الإسلامى ، لأنها يمكن أن **تسهم فى** توطيد دعائم هذا الدين ، ولكنه رأى ، على النقيض ، أن من الممكن أن تعطى لهم الكتب المتصلة بالفلك والطب والرياضيات والتاريخ ومعارف أخرى ، ولكن مجلس الدولة الذى أرسلت إليه القضية للاستشارة ، اعترف بطريقة غير مباشرة ، بأن الوسيلة التى استخدمها ثيسنيروس بإحراق خمسة آلاف مجلد عربى بعد الاستيلاء على غرناطة كانت أفضل من غيرها ، وأخف من رأيه نفسه ، لأنه قرر ، مع احترامه لقرار الرئيس العام لمحاكم التفتيش ، إحراق الكتب كلها ، وبعض الأصوات الخافتة فيه ، والقليلة رأت

---

(١) يطلق مصطلح « المسيحيون القدامى » على الذين ينحدرون من أصول مسيحية بعيدة ، ومصطلح « المسيحيون الجدد » ، على من أكره على اعتناق الكاثوليكية من المسلمين ، بعد سقوط دولة الإسلام ، وكانوا أدنى مرتبة فى كل شيء . « المترجم » .

(٢) Escolano, Décades, Libro X, Cap. XL.

أن تحرق كتب الدين فحسب ، ولكن القدر كان يحتفظ لمكتبة المخطوطات العربية الوحيدة والفقيرة فى إسبانيا بحظ أفضل ، فقد أنقذتها نصيحة المركيز **بلادة** Velada من النار ، إذ أوصى الملك بأن يحتفظ بها فى مكان أمين ، وقبل هذا رأيه .

وبهذا يمكن أن نلحظ إلى أى حد أوشكت أن تختفى تلك المكتبة ، ذلك النبع الذى لا ينفد ، بين لهب النيران ، ونحن ندين لها بالكثير من زهونا وأمجادنا .

إن موقف **الكاردينال ثيسنيروس** ، وأعضاء محاكم التفتيش فى وطننا ، لا يستحق أى عتب أو مؤاخذة ، وليس مدعاة لأى غضب من جانبى ، لقد فعلوا ما فعلوا لا كراهية فى الأدب والفن — وكيف يكون عدوا لهما من أنشأ جامعة القلعة ! — ولا ينطوى على أى احتقار للأدب العربى وكتب الفلسفة والطب والتاريخ ، وأمر بالحفاظ عليها ، ودون أن نصم أعمالهم بالقبح ، من حقنا ، وهذا طبيعى جدا ، أن نأسف ونألم ، لأن مثل هذه الحرائق حدثت ، وإذا كان لابد من أن يحمل الخطأ أحد ، فإن النقد يجب أن يوجه إلى شعبنا ، لأن الحكومات لا تعمل غير تحقيق رغباته العنيفة . لقد تسامحت معه وأتاحت له بعض الحرية الوقحة ، ليكشف عما فى أعماقه ، ويكشف بدقة عن تلك الفضائل الكبرى التى غزت حريتنا واستقلالنا ، ولكنها كانت فيما بعد قاعدة صلبة لعظمتنا وقوتنا .

وفيما يتصل بى لم يبق لى غير كراهية صغيرة من عاشق كتب ولهان ، لقد كان هدف قوانينا أن تحرق الكتب الضارة ، وأن تبقى على الكتب النافعة ، وليس ثمة غاية أفضل من هذه ، ولتحقيقها من الضرورى أن يكون لدى حكام الولايات ، وممثلى العدالة ، من المهارة والفهم ما يعينهم على التمييز ، وهو أمر لا يقنعنى ، لأنه من المستحيل ماديا .

أذكر أننى قرأت فى مخطوطة عربية لا يزال أصلها موجودا فى مكتبة جامعة بلنسية ، كتابة على هامشها باللغة القطلونية ، أترجمها لكم إلى اللغة القشتالية ، إنه يقول : « هذا الكتاب وجدته أنا خايمة فرنادو فى قرية لجوار Leguar ، بعد أن صعد الموريسكيون إلى الجبل ، فى البيت الذى كان يعيش فيه منهم ملينى الوادى اسمه Mil- Leni Guadalest ، الملك الذى اختاروه عليهم ، وبما أنه كتب فى خط عربى ، لم أجد أحدا أبدا يستطيع قراءته ، وأخشى ألا يكون قرآن محمد » .

والمخطوطة غير مؤذية على الإطلاق : إنها كتاب فى قواعد النحو !

كم من المخطوطات انتهى بها المطاف إلى النار خشية أن تكون القرآن ، وليست هو ، شكا أو جهلا !